الباب الثاني

شخصية المسلم في ضميره وسلوكه

- شخصية المسلم :
- اثر الضمير الديني :

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

- ان هى الا حياتنا الدنيا .
- طبيعة الانسان فى حاجة الى توجيه الهى .
- الكرامة الانسانية فى دعوة الاسلام .
- الاسلام واستقلال الشخصية .
- استقلال الشخصية لا يمنع التعاون .
- التحرر من الخرافة فى الاعتقاد .
- تحرر الفرد من انانيته .
- طريق التحرر من الخوف .
- الانتاج وقيمته فى الحياة .
- العمل واستغلال الفراغ .
- القدوة الحسنة .
- الطريق الى التقدم .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولا — شخصية المسلم

ان هى الا حياتنا الدنيا !!

إن الوجود الحاضر الذى يعيش فيه الإنسان له علاقة وثيقة بتفكيره وتصوره: يتأثر به ويؤثر فيه ، سواء أكان فى مرحلة طفولته أم فى سن مراهقته أم فى وقت رشده ونضوجه . ومن هنا كانت : «البيئة» عاملا من العوامل الرئيسية فى تكوين الفرد من جانب ، وفى فهم غيره له من جانب آخر .

ولكن هذا الوجود الحاضر الذى يعيش فيه الإنسان لايملك عليه تصوره وإدراكه إلا فى مرحلة الطفولة له ، وهى المرحلة التى تتميز بالتفكير الحسى وحده ، وعدم استطاعة تجاوز الحس بتفكيره إلى محيط آخر من الوجود . وهو محيط المعنويات والمبادىء والقيم ،أو محيط اللامحسوس الذى ينتزعه العقل من المحسوس نفسه وتشغله أمور عامة كلية هى المبادىء والقوانين .

فالإنسان الطفل يدرك أشخاصاً محسوسة ويقف بإدراكه عندها : يدرك الأب فى شخص أبيه ، ولكنه لايدركه فى «معنى»: من له ولد على الإطلاق . ويدرك الأم فى شخص أمه فحسب ، ولكنه لايدركها فى «معنى»: من كانت لها ولد سواء أكانت أمه هو ، أم أكانت أماً أخرى لولد آخر . ويتصور «المنزل» فى شخص المنزل الذى يسكنه ولكنه لايتصوره على أنه: معنى عام لمسكنه هو ولمسكن غيره... يرتبط تصوره وتفكيره بالمحسوس لابما عداه . حتى إذا أريد له أن يتصور قريته أو مدينته تصورها على أنها العالم ، وليس وراء قريته أو مدينته قرية أومدينة أخرى فى وطنه أو فى وطن آخر . كذلك إذا كشف عن تصوره لوجوده الحاضر الذى يعيش فيه تصوره على أنه :«الوجود كله». وليس بعده أو وراءه وجود آخر بحال من الأحوال .

... ذلك لأن الحس قد استبد به وانغمس هو فيه ، بحيث لم يستطع بعد أن يطل برأسه عليه ويقف على معالمه ويعرف حدوده ، ويكون حكماً وقاضياً على مايجرى فيه ، بدلا من أن يكون قطعة غارقة فى العمق فيه .

وما يزال رويداً رويداً يحاول أن يطفو على سطحه لتكون له فرصة إدراك حجمه وتنوعه ، وكلما ارتفع بإدراكه عن محدودية الشخص إلى إدراك المعنى العام كلما سار قدماً فى تطوره الإنسانى .

ومرحلة المراهقة تمثل فترة « الانتقال » من الطفولة الخالصة إلى الرشد الإنسانى الواضح . وهى من أجل ذلك خليط تمتزج فيه تصرفات الطفل بسلوك الإنسان الرشيد . فبينما نرى الإنسان المراهق يتوصل بالبكاء للحصول على مبلغ معين من والدته مثلا لينفقه فى الترفيه عن نفسه أو فى شراء شىء رغب فى شرائه ... إذا به قد يمنح بعضه أو يمنحه كله لزميل أو صديق له رآه فى حاجة إليه . فالبكاء عادة هو وسيلة الطفل فى تحقيق أغراضه .. والمنح والعطاء لايكون إلا من رشيد فى الإنسانية . لأن الطفل يتشبث بما فى يده ، بل قد يتشبث أيضاً بالحصول على مافى يد غيره بالإضافة إلى مافى يده هو .

* * *

ومن هنا يقال : إن الطفل مادى فى تصوره ، وأنه فى إدراكه يقف عند حد المحسوس ، لايتجاوزه إلى مالا يره ويبصره .. أو إلى مالا يسمعه ولا مالا يلمسه .

والطفولة الإنسانية ليست سناً معينة فى عمر الإنسان ، بقدر ماهى ظاهرة فى تفكيره وتصرفاته . فقد يبقى الإنسان طفلا وهو بالغ أو متزوج وله ولد . لأن مدار الوصف بالطفولة هو ربط الإدراك لدى الفرد من الإنسان بالمحسوس لاغيره ، والوقوف بالتصور عند حد ما يلمسه ويبصره . ورحاب المحسوس ضيقة وأبعاده محدودة مهما اتسع الأفق فيها .

. . . ومن هنا كذلك يستسلم الإنسان الطفل فى إدراكه إلى إغراء المحسوس، بحيث لايكون له سلطان أو إرادة تنتزعه من هذا الاغراء ، فضلا عن أن ترفعه فوقه ليختبر مصدره ويقيمه فيتبعه أو لايتبعه . واستسلام الإنسان الطفل إلى الإغراء يفقده إدراك : «النوعية » أو مايسمى بـ «الكيف» للأشياء ، وبالتالى يحول بينه وبين الإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية . لأن الحضارة كيف ونوعية قبل أن تكون كمًّا وحجماً . فتعبير بناء الاهرامات عن حضارة قدماء المصريين ليس لأنها ضخمة مركبة من أحجار يزن الواحد منها عدة أطنان ، بل لما فيها من فكر هندسى فى البناء استخاص من المحسوس والتجارب فيه وأصبح قواعد عامة صاغها الفكر الانسانى فى نظريات أو معادلات . وذلك أمر فوق المحسوس نفسه ، وإن كان مفرغاً ومستنتجاً منه . ثم أيضاً لما فيه من فكر آخر انطوت عليه الغاية من بنائها ، وهو ذلك الفكر الذى يصور الوجود ودرجاته لدى قدماء المصريين ، كما يحدد إطار الحكم والعلاقة بين الأفراد فى المجتمع إذ ذاك .

فدلالة البناء للأهرام على فكر هندسى يمكن أن يصاغ فى نظريات ، ثم دلالته أيضاً على فكر آخر يرسم نظام المجتمع القائم آنئذ . . . هو إسهام فى حضارة فنية واجتماعية تعلو درجة المحسوس والكم والأحجام .

والإنسان الطفل إذن يؤثر الحجم والكم على النوع ، كما يؤثر لون الشىء على كيفه . فكلما كان حجم الشىء كبيراً كلما كان أكثر إغراءً للإنسان الطفل . وكلما كان لونه زاهياً أو فاقعاً كلما كان أكثر تأثيراً وأخذاً بلب هذا الإنسان . وينسى فى سبيل كبر الحجم أو فى سبيل لونه الزاهى أو الفاقع : نوع الطعم والمذاق إن كان مما يؤكل ، أو نوع الجودة والصلابة إن كان مما يلبس أو يتقى به عند الإيواء .

* * *

ومن استبد بهم المحسوس عند التفكير وهم كبار ، وأخذ عليهم منافذ الادراك يحاولون إقناع غيرهم بصحة مايتوجهون إليه فى الارتباط بالحس وحده عند الحديث عن اليقين أو عند التعبير عن «الواقع»، ويعدون ماوراء المشاهد والمحسوس : وهماً وتخيلا أو خداعاً .

وهؤلاء الذين يقفون عند المحسوس وحده إن فكروا أو تفلسفوا ليسوا هم فقط من أصحاب الجديد . بل كانوا فى القديم كذلك وسيكونون أيضاً فى الغد القريب والبعيد . لأن التفكير الحسى المادى كالتفكير المعنوى من الظواهر الإنسانية شأنهما شأن الطفولة والرشد فى حياة الإنسان : فما دامت هناك طفولة وما دام هناك رشد فى الإنسانية ... فالتفكير المادى قائم والتفكير المعنوى الآخر موجود .

ومن النتائج المترتبة على الاتجاهين فى التفكير : أن الذى يقف بتفكيره عند المحسوس المادى يقصر الوجود والحياة على هذا الوجود الحسى ، ثم ينكر وجود الآخرة كمرحلة ثانية فى حياة الإنسان . بينما الذى يدرك المحسوس ثم يخلص منه إلى نوع من الإدراك المعنوى وراء هذا المحسوس لايستبعد أن تكون هناك مرحلة ثانية لوجود الإنسان على هذه المرحلة لوجود الحاضر . وهو من أجل ذلك قريب إلى الإيمان بالدنيا والآخرة ، على نحو مايذكر دين الله ، وقريب كذلك من الإيمان بوجود الله الذى لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

يحكى القرآن الكريم صورة من صور الاتجاه المادى فى التفكير الذى يصل بأتباعه إلى إنكار الدار الآخرة لأنها ليست محسوسة ولا مشاهدة :

« ثم أنشأنا من بعدهم [قوم نوح] قرناً [قوماً أو مجتمعاً] آخرين .

« فأرسلنا فيهم رسولا منهم [هو على الأرجح هود عليه السلام] :

« أن اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره

« أفلا تتقون ؟ .

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا :

« ماهذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون .

ولئن أطعتم بشراً مثلكم ، إنكم إذاً لخاسرون .

« **أيعدكم : انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون !**

« **هيهات ، هيهات لما توعدون .**

« **ان هى الا حياتنا الدنيا .**

« **نموت ،**

« ونحيا [فى خلقنا من بعدنا]

« وما نحن بمبعوثين .

« إن [هو] إلا رجل افترى على الله كذباً ، وما نحن له بمؤمنين ! »(١)

ثم إذا عرض الإيمان بالله عليهما أنكره الأول وهو المادى فى تفكيره ويطلب أن يراه عياناً ، بينما يصدقه الثانى وهو الذى لم يقف بادراكه عند المحسوس وحده استنتاجا من هذا الكون العظيم وما فيه من نظام وتنسيق عرف الإنسان بعضه ولم يزل يكشف السر عن باقيه ، وقلما يصل إلى عمقه كله .

ويحكى القرآن عن أصحاب هذا الاتجاه المادى إزاء وجود الله ، فيقول :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا :

« **لولا انزل علينا الملائكة !**

« **أو نرى ربنا !**

«لقد استكبروا فى أنفسهم ، وعتوا عتواً كبيراً» .

ويرجع القرآن رأى هؤلاء أصحاب الاتجاه الحسى فى التفكير إلى وقوعهم تحت تأثير الإغراء بالوجود المادى وحده ، وبحيث لا يستطيعون الانفكاك عن أسره ، فى قوله :

---

(١) المؤمنون : ٣١ — ٣٨ .

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون [يسيرون فى ضلال] » .

والجدد من أصحاب هذا الاتجاه المادى فى التفكير إذ ينكرون الله والدار الآخرة كلية ويعتبرونهما وهما ، كما يعتبرون الدين كله خداعا لأنه يتحدث عما وراء الطبيعة المشاهدة ، لا يستقيمون مع منطقهم الحسى عندما ينكرون : « الفرد من الإنسان كذات مستقلة تُرى وتحس ، ويقرّون فى الوقت نفسه «بالمجتمع» على أنه حقيقة موجودة يفوق فى وجوده وجود أفراده، مع أن المجتمع « مفهوم » و «معنى» يتصوره الإنسان فحسب ، ولكن لا يراه ببصره ولا يلمسه بيده ولا يسمع نداءه أحد إن كان له نداء .. وهذا من شأنه أن يثير سؤالا هو : ما الفرق فى نظر هؤلاء بين وجود الله ووجود المجتمع ، وكلاهما لا يرى ولا يحس ؟ .

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ..

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ »

* * *

إن دين الله فى دعوته إلى الإيمان بوجود الدار الآخرة إنما يريد أن يحمل الإنسان على التوازن فى حياته الدنيوية الحاضرة . فلا يُذَلّ عندما يفقد ماله أو ما هو مصدر متعته فى حياته ، وينحدر فى مذلته إلى درجة اليأس ، ويتملكه الحقد آنئذ فينكر الوجود والخالق له معاً . ولا يتعالى كذلك ويدل على غيره فى أمته ، ويطغى على كل ما حوله إن اغتنى بعد فقر ، ويسر الله له الأمر بعد عسر فيه

إنه يريد للإنسان عن طريق الإيمان بالآخرة أن يصبر عندما ينزل به الضرر والإيذاء فى المال أو فى أى عرض من أعراض الدنيا ، وأن ييسر لغيره ويعمل صالحاً إن

فى سلوكه الشخصى أو فى بره بالآخرين معه ، إذا أنعم الله عليه بفضل من متع هذه الحياة :

«ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة [نعمة] ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور .

«ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء [فقد رشده] مستهاً يقولن : ذهب السيئات [الفقر والضيق] عنى ، إنه لفرح فخور [متكبر على الناس ، مستهين بهم] .

« إلا الذين صبروا [عند الفقر والشدة] وعملوا الصالحات [عند الميسرة] أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

فالإنسان قبل الإيمان بالله والتوجيه به هو على النحو الذى أشارت إليه الآيتان هنا ، الأولى والثانية من عدم الاتزان . فإما إلى الأدنى والمذلة واليأس والكفر ، وإما إلى الأعلى فالترفع والتكبر والطغيان .

ولكن الإنسان الذى دخل الإيمان إلى قلبه هو الصابر فى الضراء والبأساء وحين البأس ، وهو الذى يتخذ من نعمة الله عليه عند الميسرة سبيلا إلى إسعاد غيره وداعياً إلى الاستقامة والسلوك المهذب فى تصرفاته ، وسبيلا آخر إلى الزهد والقناعة فى متع هذه الحياة التى هى وفيرة لديه .

إن الدار الآخرة — فى نظر الدين — هى الحل لمشكلة الحقد بين الناس فى الدنيا لأنها موضع الأمل الأخير . فأنظار المؤمن بالله تتجه إليها وحدها . ومن أجل ذلك حياتهم فى الدنيا يجب أن تكون حياة سلام وصفاء ، يسعون جميعاً لخير أنفسهم ، إذ هذه الدنيا فى إيمانهم بداية وليست نهاية .

ولأن الآخرة أيضاً دار الجزاء : فيها النعيم الذى لا يوصف ، والشقاء الذى لا يعرف مداه ، ونعيمها أو شقاؤها مرهون بنوع العمل والسلوك فى الدنيا ، كان مستوجباً على المؤمن أن يسعى بعمله فى دنياه للحصول على نعيم الآخرة وتجنب شقائها . ومن أجل ذلك أيضاً ينبغى أن لا تكون الدنيا داراً للخصومة أو الحرب

بين المؤمنين أنفسهم ، بل على العكس يجب أن يكون التنافس فيما بينهم من أجل الخير العام عن طريق إنكار الذات .

والآخرة إذن دار القرار والجزاء معاً ، والدنيا مجاز ومكان اختبار وتجربة يوصل إليها فحسب . وبقدر مايكون عمق الإيمان بالآخرة تكون صلاحية التجربة فى الدنيا .

وبهذا التصوير يسعى الدين لحل مشكلة الحقد الإنسانى . وهو الداء المزمن مع الإنسان ، والذى لم يجد فى علاجه حتى الآن : تقدم العلم فى القرن التاسع عشر ، وتقدم التيكنولوجيا والتطور الآلى فى القرن العشرين .

كما لم تنجح معه فلسفة القرن التاسع عشر المادية الداعية إلى حرمان الإنسان كلية من التملك للمال ، ووضعه فى حيازة تحت الرعاية العامة للمجتمع . وإنكار هذه هذه الفلسفة للدار الآخرة وللدين عامة بالاضافة إلى التبشير : « بغد أفضل » فى هذه الدنيا لم يغد شيئاً فى حل مشكلة الحقد الإنسانى وأثره فى تمزيق النفوس والمجتمعات البشرية شر ممزق . بل على العكس طرد من النفوس : البقية الباقية من إيمان ، وأفسح بذلك فيها المكان لتمدد هذا الداء الإنسانى الخطير .

وما يذكر الآن من إحصائيات وتقديرات لسكان العالم فى الفترة الباقية من قرننا العشرين يشير إلى زيادة خطيرة فى عدد السكان تنذر بمجاعة عالية لاتعرف نتائجها . فهل مع ذلك: الوعد : «بغد أفضل» فى الرفاهية ومستوى المعيشة سيتحقق؟ أم أن الإيمان بالله والدار الآخرة يمكن أن يعمل على تخفيف حدة التوتر فى وجودنا الدنيوى الحاضر ، وبالتالى يمكن أن يسهم فى تقليص دائرة المجاعة المتوقعة ؟ .

طبيعة الإنسان فى حاجة إلى توجيه إلهى

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الزمر ، وهى سورة مكية :

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار »(١) .

ويقول جل وعلا فى سورة يونس ، وهى سورة مكية أيضا :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون »(٢) .

ويقول فى سورة الروم ، وهى كذلك سورة مكية :

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون »(٣) .

ويقول فى سورة فصلت ، وهى أيضا من السور المكية :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض »(٤) .

وآيات أخرى وردت فى بعض السور المكية الأخرى . وهذه الآيات وتلك

---

(١) الآية : ٨ .
(٢) الآية : ١٢ .
(٣) الآيات : ٢٣ — ٢٦
(٤) الآية ٥١ .

نزلت فى أولى مراحل الإسلام ، وهى مرحلة الدعوة إلى التوحيد والتوجيه فى العبادة إلى الخالق الواحد .

وهى تشير إلى طبيعة الإنسان قبل أن تتأثر بالتوجيه الإلهى وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوضح أن شأن الطبيعة الإنسانية مردد بين أمرين :

بين حال العسر وحال اليسر ، بين حال المرض وحال الصحة ، بين ضعف الشيخوخة وقوة الشباب ، بين الجهل والعلم ، بين الضر والنعمة ، أو بين الشر والخير على العموم . كما تذكر أن الإنسان فى الحال غير المرغوب فيها لديه — وهى حال العسر والضيق أو حال المرض والضعف أو حال أزمة النفس أو كربتها — يضرع إلى المولى الخالق ويتجه إليه بالدعاء ويلح فى دعائه فى كشف الغمة عنه وتبديل حال السوء الذى يشعر به . حتى إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته نسى حاله الأول ، ونسى صلته بالله ، ونسى دعاءه إياه ، ونسى فضله سبحانه فى استجابة ما دعا به ، ونسى تبعاً لذلك رسالته جل وعلا فى كونه ، ووحيه إلى رسله ، وما نزلت به الرسالة لخير الإنسان نفسه وخير الناس جميعاً .

ويتصرف عندئذ فى حاله الثانى — وهى حال النعمة : حال القوة ، حال اليسر والرخاء ، حال العلم والمعرفة ، حال المتعة النفسية والشعور بامتلاك ناصية الأمر ، يتصرف فى هذه الحال تصرف المستقل فى الوجود . ينخدع بحاله وما فيه من سعة حتى ليطغى على جاره ، وقريبه ، وعشيره فى الجماعة ، وربما يطغى على نفسه . وكثيراً ما يطغى عليها فيوردها مورد الهلاك البدنى والنفسى آخر الأمر . وربما يتجاوز فى طغيانه فيشرك بالله ويجعل له أنداداً من المال ، أو الجاه والسلطان ، أو القوة ، أو المعرفة : يعتمد عليها دونه سبحانه وتعالى . وربما يجعل غير ذلك مما لا يضر ولا ينفع : نداً لله وشريكا فى التوجه إليه . وليس من سبب لانحرافه فى التصرف وطغيانه فى التصور والعمل إلا أنه قد توهم أنه استغنى بما لديه من نعمة عن غيره

حتى عن خالقه وصاحب النعمة عليه فى واقع الأمر ومن له فضل الرحمة على عباده فى ملكوته .

طبيعة الانسان بين الشدة والرخاء :

٢ — تلك طبيعة الإنسان يحددها المولى جل جلاله فى هذه الآيات الكريمة وأمثالها : فالإنسان يعرف الله وقت بؤسه ، ويكاد ينكره وقت غناه وسعته . يكثر من دعوة الحق سبحانه يوم لاتسعفه الحال فى حياته ويوم تضيق عليه نفسه بوجوده ، ولايكاد يذكر اسمه يوم يغريه جاه المال أو القوة والسلطان ، أو العلم والمعرفة .

والإنسان إذ يدعو الله فى أزمته يود أن لو يتمكن من العمل برسالة الله كلها: فيواسى الجار ، ويرعى القريب ، ويطعم المسكين ، ويعلم الجاهل ، ويكون لغيره أخا يشد أزره فى الملمات ويعاونه على دفع المكروه عنه ، ويكون لأمته وجماعته خير من يذود عن حماها ، وأول من يفنى فى سبيل مثلها وأهدافها ، وفى مقدمة المشاركين فى خيرها .

ولكنه إذ ينخدع بما فيه من نعمة وسعة لاينكر الله وحده ، وإنما ينكر كذلك رسالته فى خلقه : فالفقير فى نظره مبتذل ، والضعيف أمامه مهان ، والجاهل فى تقديره محتقر ، وأمته لايعنيه من أمرها إلا بقدر ما يستغل فقيرها ، ويزيد من ضعف ضعفيها ، وإلا بقدر ما يحرص على بقاء جاهلها يتخبط فى جهله ، حتى يبقى متميزاً بحال قوته ، وجاهه ، وماله ، ومعرفته .

تلك سنة الإنسان فى حياته وفق طبيعته . ولو ترك وطبيعته تتحكم فيه ويسير فيما تدفعه إليه ، دون أن يؤخذ بتوجيه الله سبحانه وتعالى ، ودون أن يروض نفسه على العمل بما جاء فيها ، لصار أمر الناس إلى فريقين : فريق له القوة فى

صورة من صورها . وهذا لا يرعى حرمات غيره ، ولا حاجاته ، ولا يقدر بشريته على العموم . وفريق آخر ضعيف ومستضعف ، وذليل ومستذل ، لا يؤمل كثيراً فى صاحب القوة فى جماعته ، ولا يترقب أن يستدر بضعفه وحاجته عطف صاحب المال والجاه والقوة معه .

وعندئذ لا يكون المجتمعون فى رقعة واحدة جماعة ، وعندئذ لا يوجد الشعور بالإنسانية بين طرف وطرف ، بل الأمر حينئذ خصومة ونفرة فى الجانبين . ثم بالإضافة إلى ذلك حقد وحسد من جانب الضعيف ، واستخفاف بالقيمة البشرية والأخوة الإنسانية وصلات القربى فى الوطن الواحد من جانب القوى صاحب الجاه وصاحب الثراء والنعمة .

علاج الطبيعة الانسانية :

٣ — تلك طبيعة الإنسان لا يتخلف عنها ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات .. إلا المصلون ، إلا المؤمنون بالله حقاً يعملون برسالته فى أزمتهم وسعتهم ، وفى ضعفهم وقوتهم . يقول تبارك وتعالى فى سورة هود : « ولئن أذقنا الإنسان منا ثم رحمة نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ويقول فى سورة المعارج : « إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين » .

إن علاج الطبيعة الإنسانية وتقويمها فى الإيمان بالله . والإيمان بالله أن تبقى صلة الإنسان بربه وقت الفرج والميسرة ، وقت النعمة والقوة ، وقت الجاه والسلطان ، وقت الصحة وفى حال العلم والمعرفة ، على نحو صلته به وقت العسر والشدة ، والضعف والمحنة ، والذلة والحاجة .

والإنسان إذ يتصل بالله فى حال كربته فيتجه إليه بالدعاء: أن يفرج عنه الضيق، ويزيل عنه الشدة، يتصل به فى حال الرخاء والقوة ليديم عليه رخاءه وقوته ويجتنبه الانحراف والطغيان ويسدد خطاه فى العمل بما جاءت به الرسالة الإلهية.

وصلة الإنسان بربه فى كلا الحالين هى العمل بما أنزله فى كتابه الكريم: فالالتجاء إلى الله فى الشدة مطلوب فى كتاب الله. وعدم جحود نعمته مأمور به أيضاً فيما أنزله على رسوله صلوات الله عليه وسلامه. يقول جل شأنه: «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون»[1].

وأمارة عدم جحود المرء فضل ربه: أن يرعى نفسه وغيره حسبما وضحته رسالة الحكيم الخبير.

فرعايته لنفسه أن يجنبها زلل الغرور والخداع. ورعايته لغيره إن كان صاحب ولاية عامة أو خاصة أن يتقى الله فيما ولى عليه أو فيمن ولى عليهم، وإن كان ذا مال أو معرفة: أن يكون لغيره نصيب من ثرائه ومعرفته.. وهكذا...

أمارة عدم جحود المرء فضل ربه أن يتخذ من القوة، والجاه، والنعمة، والصحة، والمعرفة، وسائل لخير نفسه وخير قومه وجماعته، ولا يتخذ منها انداداً لله يعتمد عليها دونه، أو يشركها معه فى التقدير والاعتبار.

٤ — إن الله سبحانه وتعالى — برسالته إلى خلقه وحثه الناس على اتباعها — يريد أن يوجههم إليه فى حالى سرائهم وضرائهم على السواء. لأن فى اتجاههم إليه سبحانه وتعالى فى كلا الحالين مأمن من الزلل والطغيان وقت الرخاء، ومأمن من اليأس والقنوط وقت الشدة.

---

(١) البقرة: ١٨٦.

إن فى الاتصال بالله فى واقع الأمر دفعاً للبلاء فى كل حال . أما فى حال العسر ففى الاتصال بالله دفع لبلاء الأزمة والمحنة . وأما فى حال اليسر ففيه دفع لبلاء طغيان الجاه والقوة .

وإن حقيقة الاتصال بالله : العمل بكتابه والأخذ برسالته . والعمل بكتاب الله والأخذ بتعاليم رسالته ينتهى إلى التوازن فى حياة الجماعة : فلا تشتد أزمة بإنسان ، ولا تغرى ميسرة إنسان بآخر . كما ينتهى إلى التوازن فى حياة الفرد نفسه أيضاً ، إذ يحول بينه وبين السقوط المادى والأدبى إذا ما عاث بعناصر النعمة الفساد .

إن الاتصال بالله يحول دون إذلال الناس وامتهان كرامة البشرية ، كما أنه يضفى الوقار والاتزان على تصرفات من حباه الله بفضله وأفاض عليه من نعمته .

الطبيعة البشرية فى حاجة إلى تقويم وتهذيب . وتقويمها وتهذيبها فى دين الله . والناس أفراداً وجماعات يتوقف اطمئنانهم ، ويتوقف خيرهم على اتباع هداه . . .

الكرامة الإنسانية فى دعوة الإسلام

يقول الله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[١] .

كرم الله الإنسان فى خلقه ، فأعده بالإمكانيات التى تؤهله للسيادة على الأرض. وهى إمكانيات العقل ، والقلب ، والسعى . ولذا فضله على كثير من المخلوقات تفضيلا واضحاً .

فبالعقل يهتدى الإنسان فى مسالك الحياة ، وبالإيمان يدفع لارتياد هذه المسالك ، وبالسعى يتمكن من السيطرة على البر والبحر ويحصل رزقه من طيبات ما فى الأرض .

والإنسان مطالب أمام الله من إعداده الذى أعده الله به — أن يهتدى بعقله ، وأن يملأ بالإيمان ، وأن يسعى ليحقق سيادته على المخلوقات الأخرى ، التى هى أدون منه والتى يفضلها فى غير لبس : « أم من يجيبُ المضطرَ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ، ويجعلكم خُلفاءَ الأرض ؟ أإلهٌ مع الله ؟ قليلا ما تذكرُونَ »[٢] .

وهنا يبدو تكريم الله للإنسان ليس فقط فى أنه خلقه فى أحسن تقويم كما تحكى الآية الكريمة : « لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسنِ تقويم »[٣] . وإنما أيضاً فى أن يسود الإنسان . فما منحه إياه من قوة العقل والقلب ، وقوة السعى هى وسائله التى تعينه على السيادة ، إن استخدمها على الوجه الذى ينبغى أن تستخدم عليه : يستخدم العقل للهداية والإرشاد لا للإفساد والإضلال . ويستخدم

---

(١) الاسراء : ٧٠ .
(٢) النمل : ٦٢ .
(٣) التين : ٤ .

القلب للإيمان ومحبة الناس ، لا للكفر والحقد والكراهية ، ويستخدم السعى فى تحصيل الخير ، لا للوشاية والإيذاء والإضرار .

تكريم الله للإنسان فى أن يكون الإنسان سيداً على نفسه ، سيداً على الهوى لا يقبل المهانة فى أن يسود به الحق على الباطل ، فى أن يؤمن بالحق وينصره ويكفر بالباطل ويطارده ، فى أن تسود قوى الخير على نوازع الشر .

وهنا يطالب الإنسان — من طبيعته ومن إعداد خلقه على هذا النحو — بالكفاح فى حياته : بالكفاح من أجل سيادة الهداية . بالكفاح من أجل سيادة الإيمان بالله ، بالكفاح من أجل سيادة الخير . كما يطالب بالكفاح ضد الضلال ، وضد قوى الشر .

والهداية ، والإيمان بالله ، والخير ، تصور مظاهر الحق . والضلال ، والإلحاد أو الكفر ، والشر ، يصور مظاهر الباطل . وإذ يقول القرآن الكريم : «وقلْ جاء الحق وزهقَ الباطلُ إن الباطلَ كانَ زهوقاً»[1] .. يخط الإنسان مجال الكفاح ، يضعه بين الحق والباطل ، ويطلب منه نصرة الحق فهو آت ، وسيتحقق يوماً ما ، كما يطلب منه مقاومة الباطل لأنه سيذهب يوماً ما .

والقرآن بما يقصه فى الآية التى افتتحنا بها هذا الحديث من تكريم الله للإنسان على نحو ما أشرنا من تمكينه بالاستعداد الطبيعى من أن يسود — سيادته للحق ومن أجله ، وضد الباطل وفى سبيل مقاومته — بما يقص من ذلك يحدد معنى الكرامة الإنسانية التى يدعو إليها الإسلام .

فالكرامة الإنسانية ليست شيئاً آخر ، وراء محافظة الإنسان على خصيصته وميزته . وقد تجلت خصيصة الإنسان وميزته فى أنه خلق للكفاح ، وأعد لأن

---

(١) الاسراء ٨١

يكون ذا سيادة بالحق على الباطل . ودعوة الإسلام — وهى رسالة الله ليهتدى بها عقل الإنسان — تقوم على طلب وإعزاز الحق وإزهاق الباطل ، أينما وجد الحق وأينما وجد الباطل .

وكل ما يدعو إلى صفاء النفوس وإزالة ما بها من أحقاد وضغائن ، وكل ما يقوى الروابط ويجمع الكلمة هو دعوة إلى الحق : « وَنُنزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هُو شِفَاء [للصدور] ورحمة للمؤمنين » [فى ترابطهم وتوادهم] (١) ولا تصفو النفوس من الأحقاد والضغائن ويتواد بعضها إلى بعض إلا إذا امتلأت القلوب بالإيمان بالله .

وعلى العكس من ذلك ، كل ما يدعو إلى ملء النفوس بالفرقة والحقد . ويمزق ما بينها من ترابط هو دعوة إلى الباطل . وأساس الباطل: الإلحاد والكفر بالله . إذ الملحد والكافر بالله لا يتهيب أن يسلك طريق الإجرام ، ويرتكب المنكر ، ولا يتهيب أن يشيع الفاحشة بين الناس . « يَأيُّها الناسُ كلوا مما فى الأرضِ حَلالاً طيباً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ إنه لكم عدوٌ مبين . إنما يأمرُكم بالسوء والفحشاءِ وأن تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون(٢) » .. « إنَّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلون النبيِّينَ بغيرِ حقٍ ويقتلونَ الذين يأمرون بالقسطِ منَ الناسِ فبشرهم بعذابٍ أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرةِ وما لهم من ناصرين »(٣) .

• • •

دعوة الإسلام إلى الكرامة الإنسانية هى دعوة التمسك بالحق والوقوف بجانبه ، ومناصرة من يناصره . والذى يدعو إلى الترابط والتوادد ، ويدعو إلى

---

(١) الاسراء : ٨٢ . (٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٣) آل عمران : ٢٠ ، ٢١ .

الإيمان بالله ، يدعو إلى الحق . والذى يناصر الترابط والإيمان بالله يناصر الحق .

وما يدعو إليه الإسلام ليس بعيداً عن طبيعة الإنسان واستعداده . ومن لا يستجيب لدعوته حينئذ فقد انحرف عن فطرته التى فطره الله عليها وتغلب عنده الهوى على رشد العقل ، وأفرغ قلبه من الإيمان ودفعته فى سعيه نوازع الشر والضلال .

وآية أننا أصحاب كرامة هو أن نكون فى جانب الحق لإحقاقه ودفع الباطل عنه . وآية أننا نستجيب لدعوة الإسلام أننا نناصر الله فيما أتت به رسالته من إعزاز الحق ونصره ، ومن السعى فى سبيل الترابط والتوادد .

وبذلك نكون قد حققنا نعمة الله علينا ، وهى : أنه فضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا .

obeikandl.com

الاسلام واستقلال الشخصية

الاستقلال هو عدم قبول الاعتداء . وفى الوقت نفسه استطاعة رد الاعتداء . فاستقلال الفرد فى شخصيته هو عدم قبول الاعتداء على مقومات هذه الشخصية واستطاعته مادياً ونفسياً رد هذا الاعتداء عليها . واستقلال الجماعة والأمة هو عدم قبولها الاعتداء على مقومات شخصيتها ، واستطاعتها كذلك نفسياً ومادياً رد هذا الاعتداء . لأنه لا تكون شخصية للفرد إلا إذا تحددت فى نفسه مقومات شخصيته ولا تكون شخصية للجماعة والأمة إلا إذا اتضحت فى نفوس أفراد هذه الجماعة المقومات الأساسية لشخصية جماعتهم .

ومقومات شخصية الفرد هى معالم إنسانيته التى تتميز بالحرية والإرادة ، فيما يعتقده وفيما يحكم به ، وفيما يسلك . واستقلال شخصية الإنسان هنا هى محافظته على أن لايتأثر فى ذلك بغير خصائص إنسانية . لايتأثر فى قضائه وشهادته وقوله بعلاقته بمن يقضى لهم . لأن علاقة الإنسان بغيره أمر أجنبى عن خصائص إنسانيته . ولايتأثر فى سلوكه بعمل غيره بل يترسم معانى الإنسانية فى هذا السلوك ، غاضاً النظر عن تصرف غيره .

فإذا تجلت مقومات شخصية الفرد فى التفكير والاعتقاد ، وفى الحكم والفصل ، وفى السلوك والتصرف — فاستقلاله فى شخصته هو دفعه العوامل بعيدة عن المعانى الإنسانية ، وعدم تأثره بها فيما يرى ويعتقد وفيما يحكم ويفصل ، وفيما يسلك ويتصرف .

والإسلام يدفع الإنسان إلى أن يكون ذا استقلال فى شخصيته : يحمله على أن يكون محافظاً على بشريته ، يدفعه إلى عدم قبول أى اعتداء على خصائص الإنسانية فيه . يدعوه إلى أن يرفض هواه ويرفض تأثره بغيره ، ويرفض تأثره بالعادات التى

كانت تسوقه ، وأن يخلى بين نفسه وبينها فيما يعتقد ويؤمن به ، وفيما يقضى وينطق به ، وفيما يسلك ويتصرف فيه :

١ — يقول الله تعالى فى وصف فريق رفض أن يؤمن بالإسلام تحت التأثر بالإلف والعادة فيما كان لقومه من عقيدة : « وإذَا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا مَا أنْزَلَ اللهُ ، قَالوا بَل نَتَّبِع مَا ألفينَا عَلَيه آباءنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهم لا يَعْقِلون شيئاً ولا يهتَدُون(١) » .. فقد لام القرآن الكريم هذا الفريق على موقفه من دعوة الإسلام لأنه لم يرفضها إلا لأنه نشأ على إلف وتمسك به ، ولم يخل بين نفسه وبين إلفه من عقائد الماضى فى تفهم هذه الدعوة . أى لم يدع نفسه حراً ولم يحافظ هنا على استقلال شخصيته فى خصائصها ومقوماتها الانسانية . بل ترك خصيصته الانسانية يعتدى عليها ولم يرد عنها اعتداء العادة والالف . إذ المعتدى هنا هو ما كان عليه الآباء من عقيدة تمتهن بشرية الإنسان الذى يعتقد بها ويساير رسومها .

٢ — وقول الله تعالى : « وإذَا قلتم فَاعْدِلوا ، ولو كانَ ذَا قُربَى(٢) » فطلب من المؤمن أن يكون عدلا فيما يقول . وما يقول قد يكون شهادة يؤديها وقد يكون فصلا فى خصومة ينطق به ، وقد يكون رواية يرويها وحديثاً ينقله . وطلب إليه أن يلتزم هذا العدل ولو كان قوله الذى يقوله متعلقاً بذى قرابة وبذى صلة خاصة من شأنها أن تؤثر عليه وتجعله يميل إليه .

ومعنى طلب العدل فى القول هنا والتزامه فى جميع الحالات — ولو كان منها ما يجرح — هو الدعوة إلى أن يحافظ الفرد على استقلال شخصيته فى مجال الحكم من العوامل التى من شأنها أن تؤثر ولا دخل لها فى خصائص بشريته معناه الدعوة إلى يحول الفرد بين نفسه وبين أن يعتدى على مقومات شخصيته . معناه أن يحول الإنسان هنا بين نفسه كإنسان له خصائص البشرية وبين هواه وميله الذى هو خارج عن هذه الخصائص .

---

(١) البقرة : ١٧٠ .
(٢) الأنعام : ١٥٢ .

٣ – وقول الله تعالى : « وَلا يَجْرِمَنكم شَنآن قَوم عَلى أنْ لاتَعْدلوا ، اعْـدِلوا هُو أقرَب للتَقوَى[1] » . فطلب من المؤمنين أن يكونوا خاضعين لخصائص بشريتهم وحدها غير متأثرين بما يفعله غيرهم . وهو إذ يطلب منهم ذلك يدعوهم دعوة واضحة إلى أن يحافظوا على استقلال شخصيتهم فى جانب الفعل والعمل ، وأن يردوا عنها عوامل التأثر فيها وهى عوامل أجنبية لا تتصل بانسانيتهم .

الإسلام يريد للإنسان أن يكون إنساناً ، ويبقى إنساناً ، ولا يكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته فى مظاهرها الواضحة . ومظاهر الإنسانية الخالصة : فى الاعتقاد الصحيح والحكم العدل والسلوك المستقيم . فإذا ضل فى اعتقاده أو مال فى حكمه أو انحرف فى سلوكه – فقد تأثر فيما ضل وفيما مال وفيما انحرف بعوامل أخرى بعيداً عن إنسانيته . ولذا كانت محافظة الإنسان على استقلال شخصيته جزءاً رئيسياً فى رسالة الاسلام . والعبادات التى فرضها الله عليه من شأن أدائه إياها وقيامه بها أن تنحى عنه عوامل الهوى وتنمى فيه الإرادة وتقوى شخصيته . فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أى تنحى عن الهوى ، والصوم تدريب نفسى لقوة الشخصية .

الإسلام يحافظ على قوة الشخصية . إذ الفرد السليم وهو الذى صار إنساناً فى تطوره وبقى إنساناً فى حياته – هو الوحدة القوية فى بناء الأمة ، وهو الوحدة التى تستطيع أن تبعد عن الشرور ، وتعمل من أجل الخير . إذ الشرور ليست إلا الانحرافات عن خصائص الإنسانية الخالصة .

شخصية الفرد فى مقومات إنسانيته ، واستقلال هذه الشخصية فى المحافظة على هذه المقومات . استقلالها فى أن تدفع عوامل الانحراف . ودائماً انحراف الإنسان يكون بما وراء إنسانيته ، يكون بهواه . والهوى هو الذى يكون العقيدة الباطلة والرأى الفاسد ، والسلوك العابث . والإسلام إذ يطلب استقلال شخصية الفرد يطلب إبعاد الهوى الذى هو مصدر كل شر وعبث .

---

(١) المائدة : ٨ .

الاسلام واستقلال الشخصية

استقلال الشخصية لا يمنع التعاون

الإسلام إن عنى باستقلال الفرد فى مواجهة فرد آخر وفى مواجهة جماعته ، وإن عنى باستقلال الجماعة الإسلامية كلها فى مواجهة الجماعات الأخرى — فإنه لايقصد بهذا الاستقلال بحال أن تنقطع صلة الفرد بالفرد ولا صلة الجماعة الإسلامية بجماعة أخرى لاتدين بدينها . فى قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ـ مايفيد إفادة واضحة أنه يجب أن تكون هناك صلات بين الأفراد المؤمنين قوامها التعاون على البر والخير وعلى تقوى الله والخشية منه . وطالما وجد هذا الأساس أيضاً فى الصلة بين الجماعة الإسلامية وجماعة أخرى إنسانية ، فالجماعة الإسلامية مطالبة بالتعاون معها لتحقيق مافيه خير الإنسانية جميعها .

وهنا مايطلبه الإسلام من استقلال الفرد فى شخصيته ، واستقلال الجماعة الاسلامية فى شخصيتها ـ هو فى واقع الأمر : أن لايذوب الفرد فى الفرد أويذهب بماله من كيان ، وحرية ، وإرادة : فى الجماعة الإسلامية .. وأن لا تذوب الجماعة الإسلامية بدورها معها خصائصها فى جماعة إنسانية أخرى تخالفها فى خصائصها . فإذ يقول القرآن الكريم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » — يبغى فقط أن لايحمل فرد مسئولية فرد آخر ، وأن لايتحمل تبعات عمل شخص آخر . فكل فرد له كيان شخص خاص ، تحدده إرادته ومشيئته ، ومن ثم فعليه أو له ماتأتى به إرادته وتحدده مشيئته من تصرف وعمل . ولكنه لايبغى بحال أنه من أجل هذا الكيان الشخصى الخاص انقطع أو يجب أن يكون منقطعاً فى العلاقة مع غيره .

وكذلك إذ يقول الله جل شأنه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » — لايقصد بحال أن المؤمنين يجب أن لايكونوا فى علاقة مودة أو تعاون

مع غيرهم . وإنما يقصد فحسب أن للجماعة الاسلاميه كياناً شخصياً خاصاً ، يحدده إيثار المؤمن بالولاء والمودة أولا . وهذا أمر طبيعى فى وجود جماعة قامت على هدف واحد فى سبيل تحقيق غاية واحدة .

أمران يعنى بهما الاسلام تمام العناية فى توجيه الإنسان : يعنى بإيقاظ الشعور بالمسئولية الشخصية ، ويعنى مع ذلك بإيقاظ الشعور بالتعاون ، وفى سبيل الخير وحده . وإيقاظ الشعور بالمسئولية الشخصية فى العمل وبالتعاون فى سبيل الخير يصور التوجيه السليم للإنسانية . إذ على أساس من إيقاظ الشعور بالمسئولية يصدر الفرد فى عمله عن ثقة بذاتيته ، وتدفعه إلى العمل والإنتاج حريته المنبثقة من وجوده الخاص . وعلى أساس من إيقاظ الشعور بالتعاون فى سبيل الخير تتهذب أنانية الفرد فلا تطغى على تصرف من تصرفاته . وعندئذ يسير بدافع من ذاتيته وحريته الفردية ، ولكن فى سبيل المشاركة والمعاونة المثمرة بغيره .

إن الانحراف فى توجيه الفرد يكون إما بسبب سلب الفرد شخصيته وحريته وإرادته ، أو بسبب ترك شخصيته وأنانيته تنمو حتى لاتعرف لتصرفها حدوداً ومقاييس . وفى الحالة الأولى يساق الفرد إلى العمل والانتاج سوقاً ، ويحتاج لكى يعمل وينتج إلى حراسة خارجية مستمرة ، كما يفقد فى داخل نفسه متعة العمل ، لأنه فقد حينئذ الحرية فيه وعندئذ هو مكره من الخارج ، وكاره فى قرارة نفسه . وذلك شر وضع يوضع فيه الانسان أما فى الحالة الثانية فتتأصل الأنانية فى تصرفه وتحمله على أن يتجاوز غيره معه فى مجتمعه فلا يراه ولا يراعى له لذلك وجوداً ولا حرمة فى ماله وعرضه ونفسه . ولا يقوى له علاقة مع غيره إلا على أساس من الاثم والعدوان . وعندئذ وضع الفرد فى البشرية لايقل عن وضع سابقه ، من حيث الآثار السيئة التى تترتب على الانحراف فى توجيه كليهما .

إن القرآن الكريم إذ يقول : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً » (١)

(١) البقرة : ١٤٣ .

obeikandl.com

يعني لهذا ـ ضمن مايعني ـ أن توجيه الإسلام المؤمنين به يتجنب كلا الانحرافين: لم يسلب المؤمن حريته وشخصيته واستقلاله حتى يكون ذليلا مكرهاً، وكارهاً، كما وضحنا — ليكون ذا شخصية واستقلال، ومع ذلك ذا تعاون ومشاركة، لا في الإثم والعدوان وإنهاك الحرمات، وإنما في الخير والنفع العام، وهو نفع المجتمع وخيره.

وبهذا التوجيه الإسلامي كان المؤمنون بالإسلام أمة وسطا.

وإذ، يذكر القرآن الكريم في آية أخرى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله[1]».

يذكر ذلك ليقرر تلك الحقيقة الواضحة وهي أن بهذا التوجيه الإسلامي الذي يتجنب الانحراف في كلتا صورتيه تكون الأمة التي تنشأ عليه حقاً: خير أمة، يمكن أن تظهر وتوجد بين البشر جميعاً.

الإسلام توجيه سليم، وطريق مستقيم، وهدى للمؤمنين: «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد»[2]. صدق الله العظيم.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) أول سورة ابراهيم.

التحرر من الخرافة فى الاعتقاد

الإسلام دعوة إلى التحرر . دعوة إلى تحرر الفرد من الخرافة فى الاعتقاد والتصور ، ودعوة إلى تحرره من سيطرة الأنانية والفردية على تصرفاته وسلوكه ، ثم هو دعوة أيضاً إلى تحرر المجتمع من عدم التوازن الداخلى وأخيراً دعوته إلى تحرره من الخضوع لقوة المعتدى عليه وسلطانه ذلك السلطان الذى يفرضه لاستغلال وإلحاق الضرر المادى والأدبى بأفراد المجتمع .

والإسلام إذ يدعو الفرد إلى التحرر من الخرافة فى الاعتقاد أو فى التصور يدعوه فى واقع الأمر إلى رفع العقبات المعنوية والفكرية التى تحول بينه وبين استخدام طاقته كإنسان مفكر ، هيئت له وسائل السيادة على الأرض بالسعى فيها والتمكن من نعمها ، على أساس من كشفها بعقله الطبيعى الذى لم يتأثر بعد بالانحراف فى التوجيه .

إن الاعتقاد فى الخرافة هو الاعتقاد فى باطل ، لايصدقه واقع الأمر . فإذا روى أبو داود — عن قبيصة رضى الله عنه — أنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : العيافة والطيرة والطرق من الجبت [الباطل] » — عرفنا أن الإسلام يحارب التكهن فى صوره المختلفة ، ليس فقط فى الصور التى كانت معروفة فى الجاهلية على نحو ماورد فى هذا الحديث. والعيافة والطيرة تكهن بالطيور، وترتيب أمر الإنسان فى إقدامه على العمل أو عدم إقدامه عليه على حركات الطير يميناً وشمالا . والطرق تكهن أيضاً ولكنه بضرب الحصى .

فتشاؤم الإنسان وتفاؤله بحركات الطير ، أو تصديقه أن مصيره فى جانب من جوانب حياته مرتبط بضرب الحصى — على نحو ما كان فى الجاهلية — من شأنه أن يقيد الإنسان فى مسعاه بما لا يصدقه الواقع ، ومن شأنه أن يجعل

الإنسان العملاق فى هذا الوجود قزماً صغيراً ذليلا ، يتحكم فى تقديره للأمور حجر أو ما يشبهه فى فقدان استطاعة التحكم من مخلوقات الله فى كونه .

والقرآن الكريم إذ يقول : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرة ، ولا سَائِبَة وَلا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون »(١) — يقصد إلى محاربة الاعتقاد فى الخرافة . ذلك الاعتقاد الباطل الذى ساد الجاهلية عند العرب فيما كانوا يعتقدونه فى الإبل والغنم ، إذا نسلت عدداً معيناً أو نسلت أناثاً فقط أو جمعت فى نسلها بين الذكر والأنثى . فهم كانوا بناء على الوضع الخاص فى النسل للناقة أو الشاة يطلقون سراحها أو يعفون أنفسهم من شرب لبنها ، رجالا ونساء أو نساء فقط . ويحارب ذلك الاعتقاد لأنه اعتقاد فى خرافة أى فيما لا يصدقه الواقع .

وإذن الإسلام منطقى مع تعاليمه التى كشف بها عن طبيعة الإنسان ككائن يجب ألا يقيد حركته ومسعاه إلا بما منحه الله من تفكير فى حدود ما تفضل عليه من رسالة الرسول ﷺ . يريد الإسلام بمحاربة الخرافة إذن أن يفسح الطريق للإنسان من الأوهام والأباطيل فى الاعتقاد ليكون ذا تفكير سليم وعلم صحيح ، وذا إيجابية فى الحياة .

والأوهام والأباطيل فى الاعتقاد هى كل ما لا يصدقه الواقع : فالاعتقاد فى شىء ما على أن فى حركته بالصدفة تقرير لمصير الإنسان — وهو فى واقع الأمر ليس كذلك — اعتقاد فى الأوهام والخرافة . والاعتقاد فى شىء على أنه ينفع أو يضر — وهو فى واقع الأمر لا ينفع ولا يضر اعتقاد فى الأوهام والخرافة : « واتخذُوا مِنْ دُونِه آلهة لا يَخلقون شيئاً وهُمْ يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضَراً ولا نَفعاً وَلا يملكون مَوتاً ولا حَياة ولانشُوراً(٢) » . واعتقاد الإنسان فى

---

(١) المائدة : ١٠٣ .
(٢) الفرقان : ٣ .

هواه على أنه رأى وعلم – وهو فى واقع أمره ليس رأياً ولا علماً بل هوى – اعتقاد فى الأوهام والخرافة : « أفرأيتَ مَنْ اتخذَ إلهَه هواه وأضلَّه الله على علم ، وختمَ على سمعِه وقلبِه ، وجعلَ على بصرِه غشاوة ، فمن يهدِيه مِنْ بعْدِ الله ؟ أفلا تذكرُون »[١] .

إن الإسلام بدعوته الإنسان إلى أن يحرر نفسه من الخرافة فى الاعتقاد ، يريد فرداً قوياً فى تصوره وإدراكه . يريده سيداً على نفسه يهتدى بعقله وبهدى الله إياه معاً . يريده غير ذليل وغير هياب فى ارتياد سبل الحياة . يريده إذا خضع فى عبادته : أن يخضع لله وحده ويعبده ، لا يشرك فى عبادته أحداً .

«قلْ إنى نُهيتُ أنْ أعبدَ الذين تدعُون مِنْ دُون الله ، قلْ لا أتبِع أهواءكم قد ضللت إذاً ومَا أنا مِن المهتَدِين »[٢] .

إن عبادة الإنسان لاتنقص من سيادة الإنسان على نفسه ، ولاتحول بينه وبين معرفة الواقع الذى يعيش فيه . لأن الله لايريد من عبادة الإنسان إياه إلا أن يهديه إلى الحق ، وإلا أن يفهم العدل فى مجتمعه ويتجنب الانحراف والباطل فى اعتقاده :

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » .. « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ...

الإسلام دين : لهداية الفرد إلى القوة والتمكن ، ومصدر تخليص الإنسان من رق الخرافة وضعف الأوهام ..

(١) الجاثية : ٢٣ . (٢) الأنعام : ٥٦ .

الإسلام دعوة إلى التحرر

تحرر الفرد من الانانية :

يحكى الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم مقالة قوم قارون له ناصحين إياه :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين[1] ». وما يحكيه القرآن هنا على لسان قوم قارون هو مطلوب الإسلام من المؤمنين به أيضاً . لأنه يمثل الصراط المستقيم الذى خطته الرسالة الإلهية عامة لسلوك الإنسان .

وهذه الآية الكريمة تطالب المسلم : أن يتحرر من أنانيته ، تطالبه أن يتحرر من طمعه وجشعه ، أن يتحرر من إغفال شأن غيره ، واستخدامه فى سبيل رفاهية نفسه ، لا يحس بشقوة غيره وهو فى سعة ، ولا يتصور حرمان غيره وهو يسرف هنا وهناك ، وهو يمعن فى التضييق عليه ليزيد فيما يتمتع به .

والإسلام إذ يطالب المسلم بالتحرر من الأنانية وسيطرتها على سلوكه ، لا يطالبه بحرمان نفسه ولا بإهمال حاجياته وضروراته : فهذه الآية إذ تقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » .. أى اقصد فيما أعطيته من مال الدار الآخرة ، وذلك بالإحسان منه إلى ذوى الحاجة ـ تذكر بعد ذلك مباشرة : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. فطالبته برعاية حاجات نفسه مما يملك كذلك .

وبهذا كان المطلوب من الفرد : أن يرعى نفسه وغيره معاً ، وأن لا يقتصر بماله على تحصيل المتع وتوفير الملذات لنفسه وحدها ، تاركا الغير فى شقوته وحقده . إذ بذلك تفسد العلاقة بينهما ، ويشيع العبث فى الأرض التى يقيان فوقها . ولذا جاء فى الآية عقب ماتقدم : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ،

---

(١) القصص : ٧٧ .

إن الله لا يحب المفسدين» .. تأكيداً للمطلوب ، وهو التحرر من الأنانية ، بالحد من انطلاقها من جانب ، ورعاية الغير من جانب آخر .

هذا الذى يدعو إليه الإسلام من تحرر الفرد من سيطرة الأنانية هو مايتحقق به العدل والتوازن بين فرد وآخر . وليست حدود العدل والتوازن هى الإعطاء من فائض من جانب .. وقبول العطاء من جانب آخر ، بل كما يتمثل فى الإعطاء وقبول العطاء : يتمثل فى الكف والمنع .

وإذا هو تمثل فى الإعطاء تمثل فيما ينفع ، وإذا هو تمثل فى المنع تمثل فيما يضر ويؤذى . ولذا لو تلونا قول الله تعالى فى سورة الأنعام :

« قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[1] » ..

لو تلونا هذه الآيات لوجدنا القرآن الكريم يطلب العمل فيما يترتب عليه عدل وتوازن . فيطلب الإحسان إلى الوالدين ، وأن يوفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن يوفى بالعهد إن كان فى سبيل الخير ، وأن يكون الحكم ، كما تكون الشهادة قائمة على عدم التحيز مهما كانت دوافع التحيز ، ووجدنا كذلك أنه يطلب الكف

---

(١) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣ .

والمنع فيما يترتب على الكف والمنع من الفعل : صيانة للغير من الضرر والأذى : فيطلب الكف عن الشرك فى العبادة ، وقتل الأولاد خشية ما يترتب على الفقر من جوعهم وحرمانهم ، واستغلال مال اليتيم .

ومايذكره القرآن الكريم هنا من صور للفعل والمنع ، تحقيقاً للعدل والتوازن وتحرراً للفرد من غلبة الأنانية عليه : هى أمثلة يقاس عليها غيرها . فكما أن الاعطاء والمنع لايكون فى المال وحده ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، المادى منها كالسرقة وانتهاك العرض ، والنفسى منها كالحقد والحسد وتمنى السوء على العموم ، كذلك صور مايجب أن يفعل وما يجب أن يترك : ليست قاصرة على ماورد فى هذه الآيه الكريمة . والضابط لتحرر الفرد من أنانيته هو أن يعمل صالحاً ويسلك مستقيما . ولذلك : قال القرآن الكريم فى نهاية هذه الصور من الفعل والترك : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .. فوصف هذا المطلوب من الفعل مرة والترك مرة ، بأنه صراط الله المستقيم ، وأنه سبيل واحدة لاتعدد فيها .

تحرر الفرد من سيطرة الأنانية عليه ليس بالأمر الهين . ولكنه طريق يحتاج إلى إيمان وإلى دربة وصبر فيما يدرب الإنسان نفسه عليه من : إعطاء ما يملك مرة ، وحدّ من رغباته الجامحة مرة أخرى . وهنا كان مكان العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة :

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لأنها ليست رسماً يؤدى بركعات ولا بسجدات تعد وتحصى ، وإنما تقوم قبل الركوع والسجود على خشية الله ، وتمثل لذاته الكريمة جل جلاله . وما ينطق به المصلى من قوله : الله أكبر ، إن هو إلا اعتراف قلبى منه بأن : متع الحياة لاتصلح أن تكون غاية فى نفسها للإنسان . والغاية الأخيرة هى رضاء الله وحده . ومن هنا لايدع المصلى نفسه تستجيب

رغبات ذاته وهواها ، مما فيها إيذاء الغير وإضراره .

.. والصيام عبادة تنطوى على الحرمان والحد مما تطلبه أنانية الفرد . ينطوى على الحرمان انطواء مباشراً . تنطوى على الحرمان مما يشتهيه الفم ، أو يشتهى أن ينطق به اللسان من غيبة ونميمة . وعلى الحرمان مما يدور فى خلد النفس من سوء .

.. وأما الزكاة فمكانها فى العبادة أنها التى تدفع دفعاً مباشراً إلى العطاء : إلى رعاية الغير .

فالإسلام دعوة إلى تحرر الفرد من سيطرة الأنانية، وعمل لتحقيق هذه الدعوة الإنسانية المهذبة .

وأمارة المسلم إذن أنه هو الذى تحرر من أنانيته ، عملا وقولا .

obeikandl.com

طريق التحرر من الخوف

١ — إن الأمر الذى يبدد نشاط الفرد ، ويعوق طاقته الفكرية والبدنية عن أن تتجه اتجاهاً سليماً لصالح ذاته وأمته .. هو « الخوف » : الخوف من الطبيعة وكوارثها ، والأزمات والمشاكل التى قد تخلفها ، والخوف من الإنسان فى خصومته ولجاجته فى الخصومة .. فى غدره وخيانته .. فى تآمره .. فى تسلطه .. والخوف من الموت قبل أن يستمتع بشبابه ، أو بماله ، أو قبل أن يتم رعاية أولاده وأسرته .

وقبل الخوف من الإنسان الآخر معه فى مجتمعه : الخوف من نفسه هو .. الخوف من هواه على أمره .. الخوف من شهواته وجموحها فى تصرفه وسلوكه :

قد يبدو للفرد لأول وهلة أنه يستطيع بماله وبما يكتنزه منه أن يكون بمنجى من خوف الطبيعة ونوازلها ، وأنه بولده وعصبيته يكون فى حمى من أن تمتد إليه يد إنسان آخر بالسوء . ولكنه إن عاش فى تخيله هذا فترة من الوقت فإنه لا يمكنه أن يمضى طويلا بعيداً عن قلق الخوف من الطبيعة ، والإنسان مرة أخرى . لأن المال المكتنز نفسه عرضة للتلف أو الضياع أو النفاد ، ولأن الولد والعصبية كذلك عرضة للضعف وللفناء . وهذا .. وذاك يثير القلق من جديد أو يزيد فيه إن ظل باقياً عنده .

وقد يبدو للفرد أيضاً أنه يستطيع بتجنبه ظروف الموت والمخاطرة بحياته فى لقاء العدو فى القتال مثلا أنه يستطيع أن يمد من أجل نفسه وبالتالى يتيح الفرصة للاستمتاع بدنياه من مال وولد وزوجة . ولكن الموت لا يأتى على موعد ،

ولا يرتبط حتماً بظروف معينة . فقد يأتى من شهوة البطن والفرج ، ومن الفتنة بالولد قبل المرابطة لمواجهة العدو ، أو الاشتباك معه فى قتال .

والفرد الذى يسيطر عليه فى تصرفه شهواته وهواه يعيش فى خداع ما تزين له تلك الشهوات وهذا الهوى ، بحيث لا يحس بالخوف من المصير إلا وقت أن يخلو بنفسه فيراجع أمره بين الفينة والأخرى . ومثله يفاجأ بالنهاية : إما نهاية الحزن والأسى على المصير ، أو نهاية التحطم المادى وسوء ما آلت إليه أجهزة بدنه .

وربما يبدو كذلك أن « الثقة » بالذات هى وقاية من الخوف فى صوره المختلفة . فإذا وثق الفرد بذاته أبعد عنه شبح الخوف ، ومهد لنفسه طريق الاطمئنان والاستقرار فى الحياة . وربما يقال هنا أيضاً : أى مصدر يوحى بالثقة فى نفس الفرد؟ أذلك المصدر هو الذات نفسها أم هو أمر خارج عنها ؟ .

قد تكون الذات نفسها مصدر الثقة ومبعث الاطمئنان والاستقرار . ولكنها ثقة محدودة على أية حال لا تستطيع أن تمتد طوال العمر كله الفرد ، كما لا يمكن أن تقف فى وجه كل الأحداث التى تمر به . وقد تكون هذه الثقة بالذات فى حقيقة أمرها غروراً بالنفس يحول بينها وبين كشف الواقع وإدراك نتائج الأحداث القريبة والبعيدة منها على السواء . وعندئذ تكون مثل هذه الثقة أداة تحطيم للذات كلية ، وليست لوقايتها من اضطرابات الخوف والتردد فى الحياة .

إن الثقة هى فى ذات الفرد التى مبعثها الذات نفسها كثيراً ما تعتمد على صحة البدن ، أو على المال المقتنى ، أو على عصبية الأسرة ، أو على الجاه المستمد من الآخرين حوله .. أو على ما نائل ذلك من الأوضاع التى هى بطبيعتها مؤقتة ،

وبطبيعتها أيضاً معرضة بالضعف والتلاشى ، كما هى معرضة للقوة والطغيان وعندئذ لا تجعل من الثقة المعتمدة عليها ضماناً ضد خوف يطرأ ويملك على الذات شأنها فى أى وقت لأجل غير معلوم . والخوف إذن أمر مترقب فى حياة الفرد ، ونتائجه المترتبة عليه محتملة الوقوع .

وصحة البدن ، والمال الذى يقتنى ، والعصبية فى الأسرة والقبيلة ، والجاه وما يشبه ذلك .. كله مما ينتمى إلى الحياة التى يعيش فيها الإنسان على هذه الأرض وإلى الوجود المادى .

ومن أجل ذلك إذا كانت « الثقة » هى العامل الذى يبعد الخوف من نفس الفرد ، ويجعل أثره عديم الأهمية ، إن وجد على سبيل الغريزة والاستعداد فيها .. يجب أن يكون المصدر الذى يوحى بها لاينتمى إلى ماهو عرضة للتوقيت ، أو عرضة للضعف والتلاشى كما هو عرضة للقوة والطغيان . يجب أن يكون هذا المصدر موجوداً فى كل وقت ، وأن يكون غير قابل للضعف أو للتغير بحال من الأحوال .

مثل هذا المصدر هو القوة الإلهية الخالقة . . هو « الله » وحده . والإيمان به هو الضمان المستمر لإبعاد مخاطر الخوف وآثاره فى نفس الفرد المؤمن به .

والإيمان بالله ليس على أنه فحسب قوة تعلو فى تصرفها مشيئة الفرد ومقدراته وطاقاته ... ولكن كذلك على أنه الكفيل بتجنب الفرد هموم الحياة وعنتها ومشاقها ، إن اتبع الطريق المستقيم فى تصوره وتفكيره ، وفى سلوكه وتصرفاته : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

فهو لايزن الحياة المادية ومتعها بأكثر من قيمها . . لايزنها بأكثر من أنها وسيلة تستخدم لغاية أسمى ، وليست هدفاً فى ذاته يتشدد الفرد فى التوسع فى اقتنائه

ولو على حساب القيم الإنسانية ، من الأخوة والمحبة والاعتبار البشرى فى العلاقات بين الأفراد ، وعلى حساب إعزاز نهضتها وبعثها حية قوية ، كما لا يغلو فى تقدير المتعة بأى جانب منها ، مما يصير به إلى أن يفنى إنسانيته ويهدر كرامته ، تحصيلا لهذه المتعة وإنهما كما فى تذوقها .

وكذلك لا يسلك ولا يتصرف مع نفسه هو ، ومع الآخرين : سلوك المتسبب فى ضرر وأذى ، إن لم يستطع أن يكون ذا نفع تفيد منه ذاته ويفيد منه مجتمعه .

وإذن الإيمان بالله ليس قولة ينطق بها الفرد ، أو اعتقاداً يعتقده المؤمن مجرداً عن تجربة وتطبيق عملى فى الحياة . فلا يكفى أن يعلن الفرد إيمانه بالله فتأتى آثاره فى الحياة ويكون الفرد محصناً عندئذ من الأخطار ، أو يضمن له رزقه ويؤمنه جانب الخوف من قطعه . إن الإيمان بالله ليس سحراً ولا شعوذة ولا أمراً خارقاً للعادة .. إنه أمر إنسانى .. إنه جهاد النفس ، وإنه الجهاد فى الحياة .. إنه مغالبة النفس على شهواتها وملذاتها .. إنه مغالبة النفس على عدم طغيان فرديتها ، فلا ترى فى الوجود إلا الذات ولا تشعر إلا بأحاسيس الذات وحدها . . إنه عمل مستمر بعد تصديق ، وسعى شاق ومضن بعد اعتقاد . . إنه ملاءمة فى الحياة الإنسانية بين مطالب الذات ومطالب الغير . . إنه فى تطبيقه الأخير محافظة على وجود الآخرين وأحاسيسهم ، على نحو المحافظة على الوجود الخاص وأحاسيس الذات نفسها .

ويخطىء من يقيم الإيمان بالله من أوضاع الذين يعيشون بالوراثة على أنهم من أمة الله . لأنهم يرددون قولا بدون عمل ، حتى أضحى قولهم لا مدلول له فى حياتهم ، وأصبحت كلماته محرفة عن مواضعها .

الإيمان بالله ليس حياة انتقال فى التصور والتفكير والعمل فى عمر الإنسان

على الأرض.. إلى حياة أخرى منتظرة فى السماء يعيشها هناك . ليس ابتعاداً وصداً للمال والبنين والنساء ، ولكنه فقط ليس تكالباً عليها ، ولا خضوعاً لإغرائها ، ولا إغراقاً فى جوها ، حتى يكون مادى التفكير والتصرف ، ومادى النفس ، ومادى الارتباط فى العلاقات مع الآخرين ، ومادى التقييم للظواهر البشرية .

الإيمان بالله هو أن يترك الفرد المؤمن فى حياته مكاناً فسيحاً للإنسانية يتنفس فى جوه فى غبطة ، ولا يغلق هذه الحياة دون القيم الإنسانية ، كما لا يربط طاقاته بالمصالح المادية وحدها . إن الإيمان بالله ينتهى حتماً بالإيمان بالإنسان الذى يفضل الحيوان بسيادة العقل والقلب فيه معاً .

٢ — فإذا آمن الفرد بالله على هذا النحو يكون قد تخلص فى الواقع من مقومات الخوف . لأن أبرز مقوم للخوف هو خشية الفرد من فقد مايكون قد حصله لنفسه من مال أو ولد أو جاه . وتقييم المؤمن — على سبيل الحقيقة — لماديات الحياة ، ضمن تقييمه لمتعها كلها ، تقييم معتدل لايبالغ ولا يغلو فيه . ولذا فحرصه على اقتناء أى منها ليس بالدرجة التى تجعله يضطرب ويقلق ويموت خوفاً وفرقاً بعد أن يميت إنسانيته وكرامته فى سبيل بقائها والتشبث بالاحتفاظ بها

على أن الإيمان بالله فى نفسه يتضمن الإيمان « بالعوض » من جانب الله لما يفقده المؤمن به ، إن عاجلا أو آجلا ، إن عاجلا فى دنياه أو آجلا فى آخراه . فهذا الإيمان بالعوض من شأنه أن يهدىء روع المؤمن به عندما يفقد مابيده ومافى حوزته لأنه عوض ممن هو قادر ، وله الأمر كله فى الوجود : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .. « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .. « وماتنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون »

والحديث هنا عن الإيمان هو حديث فقط عن فعل « الإيمان » فى النفس وما يصنعه من ثقة واطمئنان . وليس حديثاً عن وجود الدنيا «والآخرة» والبرهنة عليه فى مواجهة المنكر للأمور الغيبية على الإطلاق ومن يراها خداعاً للنفس وصارفاً لها عن التمتع بالوجود المادى الحاضر . فالإيمان بأمر ما على أى نحو له أثره الحتمى وعلى شاكلة الصورة التى آمن بها المؤمن .

و«الجنة» التى وعد الله بها المتقين هى مكان العوض عما فات المؤمن من زخرف الحياة الدنيا وزينتها ومتعها فى الحياة الأرضية ، سواء أكان النعيم فى هذه الجنة معنوياً كما يقال .. أو مادياً . والأقرب : أنه مادى لأن جو المادة هو جو الإنسان فى نشأته .. وفى حياته فى الدنيا .

ولذا : « فالآخرة » فى الدين تكون جزءاً رئيسياً فى الايمان به . على أن التجربة العملية والتطبيق الفعلى لما يؤمن به الإنسان ، لها أثرها الآخر فى عدم الاهتزاز ، عندما يشح القوت أو يواجه المؤمن الموت فى قتال الأعداء أو يواجه مكائدهم وأذاهم . لأنه يعتقد أن ذلك كله ابتلاء من الله يجب على المؤمن الصبر عليه وعدم اليأس منه : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

وصيام رمضان فى سلسلة التجارب الإيمانية له دوره فى تكوين « القناعة » لدى المؤمن . وهى مصدر غناه الحقيقى . والقناعة ليست تنازلا عن متع الحياة المادية عند العجز . بل على العكس : هى تنازل عند القدرة والاستطاعة . والصائم فى رمضان مع وجود الإمكانيات لديه فى تلبية شهوة النفس يحول دون مباشرتها إياها بفعل العزم والتصميم ، حتى يصبح قوة سائدة فى النفس ، يمكن أن يواجه بها أى حرمان

تفرضه الضرورة والظروف فى غير رمضان من أيام السنة وعلى طول حياة المؤمن .

وهكذا ترى النفس أن «القناعة» لديها مصدر غناها الحقيقى، وليس المال فى ذاته أو الجاه ، والولد والعصبة . وصاحب هـذه الصفة يستطيع فى يسر أن يستغنى عن السؤال ، فضلا عن الإلحاح فيه . يستطيع أن يترفع عن سؤال الوظيفة ذات الجاه، وعن زينة الحياة فى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيـل المسومة والأنعام والحرث ... الخ .

ومن يستطع الاستغناء عن السؤال يمكنه الاحتفاظ بحريته . فقد تحرر فعلا من الخوف . وهو لم يسأل لأنه مستغن استغناء ذاتياً ، ومن له الغنى الذاتى لا يخشى فقدان شىء . إذ أن ما كان ذاتياً للإنسان لا يتخلف إلا إذا أدركه الموت ، حتى وعندما يدركه الموت فهو يرجو لقاء ربه مطمئناً هادئاً ، غير آسف على وضع كان يريد بقاءه والاحتفاظ والاعتزاز به .

الإنتاج وقيمته فى الحياة

« عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ :

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس :

(ا) الصحة :

(ب) والفراغ :

١ — يشير الحديث النبوى الشريف إلى قيمة الصحة فى ذاتها ، وقيمة الفراغ فى ذاته . والفراغ هو الفسحة من الوقت بعد القيام بما يتصل بضرورات العيش . وقيمتهما تتضح مع التعبير فى الحديث عنهما « بالنعمة » ، كما تتضح من أن الذى لاينتفع بهما على الوجه الصحيح يعد مغبوناً من نفسه كما يعد غابناً وظالماً إياها . لأنه وضعها فى غير موضعها .

إن الإنسان المعافى فى بدنه والسليم فى عقله يستطيع — عن طريق معافاته فى بدنه وسلامته فى عقله — أن يكون منتجاً لخير نفسه ، ومساهماً بإنتاجه فى خير جماعته : فسلامة بدنه تمكنه من ممارسة أنواع الإنتاج الذى يرتبط بالقوة البدنية . وسلامة عقله وتفكيره تمكنه من مزاولة مايتصل بالمعرفة والتوجيه الأدبى والمادى .

الانسان الذى لا يستفيد من وقته يكون غابنا لنفسه :

وإذا أتيح للإنسان المعافى أن يكون لديه فراغ من الوقت ، ونظمه فيما يفيد ويثمر ، وانتفع بصحة بدنه وسلامة عقله فى ذلك — إذا أتيح له هذا : كان إنتاجه إنتاج القوى الموجه فى الحياة توجيهاً صحيحاً ، وكان إنتاجه فى كمه ونوعه يفوق إنتاج من لم تتوفر له إمكانية الصحة والفراغ ، أو من لم يحسن الانتفاع بهما .

إن حياة إنسان ما تختلف عن حياة إنسان آخر فى كمية الإنتاج ونوعه . وإن حياة جماعة ما تختلف عن حياة جماعة أخرى بنشاط الأفراد فى دائرة الإنتاج

الإنسانى ، أو بضعفهم فيه . وليس الاختلاف بين حالة وأخرى — وسواء للإنسان أو للجماعة — يرجع إلى وجود الصحة والفراغ من الوقت عند فريق ، وفقدانهما عند الفريق الآخر ، وإنما يرجع إلى استخدام الصحة وحسن تنظيم الفراغ من جهة وسوء استخدامها من جهة أخرى .

فالإنسان الموجه توجيهاً حسناً يتجه بصحته وتفكيره بالفراغ عنده إلى ما يكون منه عاملا إيجابياً فى الحياة . قد ترتفع به إيجابيته إلى أن يكون موجهاً لحياة جماعته كلها ، أو أن يصير عنواناً لحلقة فى تاريخها أو تاريخ الإنسانية كلها .

والإنسان مهمل التوجيه يستنفد صحته وفراغه فيما يضره ويضر جماعته . وعندئذ يكون قد غبن نفسه لأنه صارها إلى ضررها . غبن نفسه لأنه سجل عليها أنها لا تحسن الانتفاع بأهم الإمكانيات اللازمة لها والتى يمكنها من النفع . سجل عليها أنها تغلب على أمرها فتصرف هذه الإمكانيات فيما لا يوصل إلى خير خاص أو عام . سجل عليها أنها تستمرىء الركود وعدم السعى المثمر فى الحياة . سجل عليها ضعف الإرادة وضعف الشخصية .

وفى الوقت نفسه يكون مغبوناً ، إذ وهب نعمة — هى نعمة الصحة والفراغ — وحسبت عليه ، دون أن يفيد منها : أعطى وسائل العمل والإنتاج الصالح فى الحياة ، ولكنه أهملها أو وجهها توجيهاً سيئاً فصارت فى حكم المهملة . وبذلك خسر الإنتاج المثمر . والقياس إلى غيره الذى منح الصحة والفراغ وأفاد منهما بعد هذه الحصيلة : فقد غبنته نفسه لأنها مالت به عن طريق النفع الواضح بصحته وفراغه ، فهو مغبون حينئذ .

شأنه شأن الجندى السالح بسلاح العصر الذى لا يحسن استخدام هذا السلاح . فكونه لم يفد من سلاحه الحديث لا يذهب بقيمة هذا السلاح فى إحراز النصر . وبالتالى عدم استخدامه إياه على الوجه المثمر مصدر لوم ومؤاخذة له . ونبعاً لذلك

وجوده معه مع عدم الانتفاع به سبب فى عدم جدوى اعتذاره عند الهزيمة .

ومن جهة أخرى : وجود سلاح العصر معه أعطاه الفرصة للنصر والعمل لخير نفسه ووطنه ، لـكنه لم يفعل . فهو عندئذ لايستطيع أن ينفى تهمة التخاذل أو التقاعد عن نفسه، ولو لم يمـكن له بهذا السلاح فى مساهمة النصر لبقى أمام نفسه وغيره فى صورة من لايلام على عدم القيام بالواجب الناشىء عن الاستطاعة فى الواقع . فقد ظلم نفسه ، وظلمته نفسه كذلك .

الأزمات النفسية سببها عدم استغلال الفراغ :

وإن الأزمات النفسية والخلقية ، وإن كثيراً من المشاكل الاجتماعية فى الأمة ترجع إلى عدم الإفادة من صحة الأقوياء وعقول المفـكرين كما ينبغى ، وإلى عدم تنظيم الفراغ وتوجيهه وجهة سليمة فى الحياة : يتحدثون الآن عن قانون الآداب العامة ، وتتحدث الصحافة ويتحدث المجتمع عن التسكع فى الطرقات واستهتار المتسكعين فى السلوك العام ، وعن الجلوس الطويل فى المقاهى واستهلاك الوقت فى الملاحظات التافهة أو النابية على المارين والمارات ، أو فى تجريح الأعراض ، أو الوشايات ، أو اختلاق الروايات ، أو التعليق على الوقائع بما يجعلها روايات أخرى مصطنعة ، وتتحدث عن الزواج ومشاكله ، وعن الوسائل التى تحول دون الأضرار النفسية والخلقية فى حال عدم استطاعته ، وتتحدث عن الموظفين فى مكاتبهم وقلة إنتاجهم فى العمل العام ... وهـكذا عن مسائل أخرى تتصل بحياة الإنسان وحياة الجماعة ولها مساس كبير بتطور الأمة وارتقائها إيجابياً وسلمياً .

إن حل هذه المشاكل يرتبط ارتباطاً كبيراً بتوجيه النشاط البدنى والفكرى وتنظيم الفراغ لدى أصحاب الفراغ .

لم تعرف الأمة القوية المنتجة فى تاريخنا الحديث أغنياء يستثمرون أموالهم فى الزراعة أو الصناعة، دون أن يكون لهم نشاط إيجابى آخر ينتفعون فيه بصحة أبدانهم

وعقولهم ، ويتخذون من هذا النشاط وسيلة لتنظيم فراغهم . لم تعرف هذه الأمم علماء لايصرفون وقتهم وحيويتهم الذهنية فى البحث والقراءة وبين الكتاب والحياة التى هى مصدر الكتاب ووحى كتابته . لم تعرف هذه الأمم شباناً وشابات ، ورجالا وسيدات، لايساهمون فى الإنتاج إسهام معاونة أو كسب مادى أو أدبى .

إن الحياة الشرقية مليئة بالصور التى تعبر عن الكسل البدنى والركود الذهنى، أو تعبر عن الانحراف فى توجيه الصحة وتنظيم الفراغ . إننا معشر الشرقيين فهمنا « القناعة » على غير وجهها . إننا معشر المسلمين فهمنا « التوكل » على غير حقيقته. إن مثل هذا الحديث الشريف الذى يهدف إلى توجيه الناس وحثهم على الانتفاع بصحتهم وفراغهم عن طريق العمل للخير — لايجعل من التوكل على الله إلا عدة أخرى يستعين بها المتوكل على الافادة من نعمتى الصحة والفراغ إلى أقصى درجات الإفادة .

الحياة عمل وإنتاج لخير النفس ، والوطن ، والجماعة . وما طلبت « القناعة » إلا كوسيلة من وسائل رد الاعتداء بسبب الطمع وسوء استخدام الصحة والفراغ. والمنتج العامل فى الحياة يكون طموحاً ولكنه لا يكون طامعاً بحال .

ومن يعيش فى الحياة لينتج فقد عاش أيضاً بعد مماته . ومن وجد فى الحياة ليعيش وارتضى لنفسه السعى ليأكل فقط فقد ارتضى لنفسه أن يكون ميتاً بين الأحياء .

إن القلة من الناس هى التى تعرف : كيف تحيا بحسن استخدام القوة البدنية والعقلية وتنظيم الفراغ . وإن الكثير من الناس يظلم نفسه بإعدادها بين الأحياء، ولكنه لسوء توجيهه وعدم الافادة من صحته وفراغه يعيش بينهم ولايحسب معهم. أن الإسلام يسمى بتوجيهه إلى أن يعيش الناس فى هذا الوجود وبعده أحياء .

العمل واستغلال الفراغ

عن عائشة رضى الله عنها — فى رواية أبى داود — قالت : « كنت مع **النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فسابقته على رجلى ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى ، فقال : هذه بتلك السبقة** » .

ويروى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « **مر النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من اسلم ينتضلون (يترامون بالنصال والسهام) ، فقال : ارموا بنى اسماعيل ، فان اباكم كان راميا ، ارموا . وانا مع بنى فلان (فى رواية مع محجن بن الادرع) فامسك احد الفريقين بايديهم ، فقال : مالكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وانت معهم ؟ قال ارموا فانا معكم كلكم (اى فى حسن النية وقصد الخير) ** » .

فى الحديث الأول تحكى عائشة رضى الله عنها أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يباشر رياضة العدو والسرعة فى الجرى والمسابقة فيه . وفى الحديث الثانى يروى سلمه بن الأكوع أنه ﷺ كان يشجع رياضة الرمى والتصويب ، كما كان يجيدها. وهذا مثل من العمل الذى كان يؤديه الرسول فى غير أوقات تبليغ الرسالة ، وهو عمله المنوط به كرسول . ويعتبر الأول بعد أن كلف بالرسالة من قبل الله جل شأنه .

وهناك أمثلة أخرى على نحو ما يروى عن عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عما كان النبى عليه الصلاة والسلام يصنعه وهو بين أهله فى المنزل قالت : « كان فى مهنة أهله [فى معاونتهم ومشاركتهم فى القيام بأعمال المنزل] فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة » .

فهو عليه الصلاة والسلام كان يباشر من الأعمال — بعد أداء عمله الرئيسى — ما فيه نفع لبدنه وصحته ، أو ما فيه إعداد لنفسه عند لقاء خصمه ومغالبته ، أو ما فيه ترويح أو مساعدة لأقرب الناس إليه ، وهم أهل بيته وخاصته .

وهكذا كلما وجد الرسول عليه الصلاة والسلام عنده فراغاً من الوقت بعد

عمله العام وهو تبليغ الرسالة ، باشر من الأعمال فى هذا الفراغ ما يحقق المنفعة لنفسه أو لأهله : وبالتالى ما هو بعيد كل البعد عما فيه إيذاء لنفسه أو لأهله .

فى الحياة نوعان من العمل :

وكل إنسان فى الحياة له نوعان من العمل : نوع يؤديه كواجب تفرضه عليه الحياة العامة ، أو تحتمه عليه ضرورة السعى لحفظ بقائه ورعاية أسرته الخاصة .

ونوع آخر يملأ به الوقت الباقى ، بعد إنجاز النوع الأول من العمل ، ويشغل به ما يسمى بـ « الفراغ » . والفراغ هو الوقت الزائد إذن عن العمل اليومى لضرورة العيش أو حاجة التعليم فى سن التنشئة .

فمثلا : فراغ الموظفين بعد عمل الدواوين .. وفراغ العمال الصناعيين والزراعيين بعد أداء المطلوب منهم فى عمل الصناعة والزراعة . . وفراغ الطلاب والتلاميذ بعد عمل اليوم الجامعى والمدرسى . . وفراغ الذين يعيشون على تأجير الأراضى الزراعية والأملاك العقارية يشمل جميع وقتهم فى يقظتهم .

والعاقل من الناس هو الذى يملأ الفراغ من وقته بما يعود عليه بالنفع ، أو يبعد عنه الضرر على الأقل ، ويتخذ من الرسول ﷺ أسوة حسنة فى ذلك . فإن الذى يستغل فراغه على وجه يحقق مصلحة خاصة به ، هو ذلك الإنسان الذى يتحكم فى هوى نفسه ، ويدرك أن الحياة كفاح من أجل الخير لنفسه ولغيره . هو ذلك الإنسان صاحب الشخصية أو صاحب الإرادة ، وصاحب الإيمان بنفسه ومجتمعه ، وبخالق الكل .

إن وضع أى إنسان فى الحياة يتردد بين وضعين متقابلين : إما أن يترك نفسه للأحداث والاتجاهات المختلفة . وهو فى هذا الوضع لا يحتاج إلى عناء ومشقة ،

ولاجهاد وكفاح ، ولا إرادة وإيمان ، ولا أى مجهود بشرى إيجابى ، سوى أن يسير حسبما تهوى نفسه ، أو حسبما يهوى له غيره . وحظه من الحياة عندئذ حظ التابع الأسير يحيا ليعيش كيفما كانت عيشته . وإما أن يتخير طريقاً خاصاً فى حياته يجنبه احتكار غيره له . ويكفل له أن يكون سيد نفسه ، وعندئذ لابد أن يسعى وأن يجاهد فى سعيه ، وأن يتحمل مشقة الجهاد ومتاعب الكفاح . وبذلك إذا عاش انتظر أن يعمل ، وأن يكون لعمله هدف ، وأن يكون وقته دائماً مجالاً لتحقيق مصلحة أو دفع مضرة خاصة أو عامة .

هذا الإنسان الثانى صاحب العمل المثمر دائماً وصاحب الكفاح يمكن أن يستغل فراغه بالاستمرار فى التعليم والتزود بالمعارف العامة والفنية ، فيتردد على المكتبات العامة أو على الندوات وقاعات المحاضرات .

يمكنه أن يشترك فى النوادى الرياضية المختلفة ، وفى رحلات آخر الأسبوع .

يمكنه أن يشترك فى الخدمات الاجتماعية والقومية التى هدفها البر بالآخرين ، أو ترقية الوطن والمساهمة فى إنهاضه .

يمكنه — إذا لم يتيسر له ذلك — أن يخلو للعبادة وذكر الله تصفية للقلب وتطهيراً للنفس من الحقد والحسد وأمثالها من الصفات الضارة .

يروى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : أى الناس خير ؟ قال : رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ، ويدع الناس من شره » .

استغلال الفراغ فى العبث ضياع وتدمير :

وليس من استغلال الفراغ أن يقضى الإنسان الوقت فى الجلوس على المقاهى والحلقة فى النادين والرائحين ، والغاديات والرائحات .

يروى أبو سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«اياكم والجلوس بالطرقات ، قالوا يا رسـول الله ما لنا بد من مجالسنة نتحـدث فيها : فاذا ابيتم الا المجلس فاعطـوا الطريق حقـه .. قالوا : وما حقـه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السـلام ، والأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وليس من استغلال الفراغ أن يتسكع الإنسان فى الطرقات ، ويتابع السيدات والآنسات بألفاظ الغزل البذيئة ، أو بحركات تشبه حركات القردة .

وليس من استغلال الفراغ اللعب بالنرد . فيروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يقول : « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » .

وليس من استغلال الفراغ أن يساهم فى أحاديث الغيبة والنميمة ، وتناول أعراض الناس بالحق أو بالباطل .

يروى أبو هريرة رضى الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم .. قال : ذكرك اخاك بما يكره . قيـل : افرايت ان كان فى اخى ما اقـول ؟ قال : ان كان فيـه ما تقول فقـد اغتبته ، وان لم يكن فيـه فقـد بهتـه (رميته بالبهتان والباطل) » .

ليس من استغلال الفراغ أن يعمل الإنسان على الإيقاع بالغير لحقد فى النفس ، وتدبير المكايد له ، وهو فى واقع الأمر برىء عند الله . يقول الله تعالى : « ولا تطـع كلَّ حَـلاَّفٍ [كثير الحلف] مَهِين [حقير] . هَمَّازٍ . [عياب للناس] مَشَّـاءٍ بنَمِيم [ساع بالإفساد](١) » .

ليس من استغلال الفراغ تناول الشائعات ، واللغو فيها . يقول الله جل شأنه : « يَا أيها الذين آمَنُوا إذَا تَنَـاجَيتُم فَلا تَتَنَـاجَوا بالإثم والعدْوَان ومَعْصِيَة الرسُـول ، وتَنَـاجَوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تُحْشَرُون(٢) » .

* * *

---

(١) القلم : ١٠ ، ١١ (٢) المجادلة : ٩

مثل هذه الأعمال فى أوقات الفراغ تدل على عدم جدية صاحبها فى الحياة ، وتدل بالأولى على تفاهته وعدم تربيته التربية السليمة . إنها لا تكون إلا من إنسان تمكن منه الكسل ، ووقفت به الحيوانية عند حد إشباع شهوة النظر وشهوة الكلام ، وحالت دون أن ينمى عقله ، ويهذب خلقه وسلوكه .

* * *

آفتنا فى الشرق أننا نتجه إلى هذه الصغائر التى من شأنها أن تصيب الإنسان فى شعوره أو إدراكه وإنسانيته ، وأن تقطع الأوصال بين الناس جميعاً ، وإن تطبعنا بطابع السلبية فى الحياة ، وفينا مع ذلك دين يدعو إلى الإيجابية فى الحياة والعمل المثمر المنتج فيها .

إن حالنا بالقياس إلى غيرنا فى الأمم الأخرى القوية أننا نبذل تفكيرنا ونشاطنا ، وسعينا إلى هذه الأعمال البغيضة المهلكة . نحن لو ملأنا فراغنا بما يعود علينا بالمصلحة من زيادة فى التثقيف ، ومن رعاية لصحة أبداننا وهوسنا ، ومن مشاركة ومعاونة لبعضنا بعضاً — نحن لو اتجهنا هذا الاتجاه لنقصت هذه الرذائل ، وضاق مجالها ، ونظرنا إلى فاعلها نظرة الصغار والاحتقار ، كما نظر الله جل جلاله إلى فاعلها فى قوله « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ »[1] .

شيوخ يملأون فراغهم بالجلوس على المقاهى والتناجى بالإثم والعدوان ، وشبان يذرعون طرق المارة ذهاباً وإياباً فى غير ملل ، ويمنعون هؤلاء المارة من مباشرة حقهم الطبيعى فى الانتقال وإنجاز الأعمال بدون إزعاج ، ويتفننون فى الحصول على المال بوسيلة أو بأخرى لارتياد دور السينما ونحو ذلك — يعلنون عن أنفسهم بأنهم أشباه الناس ، وهم ليسوا فى عدادهم ، ثم هم عند الله بعد ذلك معتدون آثمون .

---

(١) القلم : ١٠

القدوة الحسنة

يروى عن أنس رضى الله عنه أنه يقول : « **كان رسول الله عليه الصلاة والسلام احسن الناس ، واجود الناس ، واشجع الناس** » .

ويقول الله جل شأنه فى وصف نبيه الكريم : «وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1]» .

* * *

لا تكون للإنسان شخصية إلا إذا تميز فى مجتمعه ، وأصبح مثلا واضحا لصفات طيبة تبرزه فى بيئته ، وتجعله مقدماً على غيره ، وموضع احترام لمن يعرفه ولمن يسمع عنه وعن خلاله .

ولكل مجتمع ، ولكل بيئة عرف فى تحديد الشخصية ، وتوضيح معالمها :

(أ) فللمجتمع الدينى عرف فى تحديد الشخصية الدينية .

(ب) وللمجتمع العلمى عرف فى تحديد الشخصية العلمية .

(ج) وللمجتمع السياسى عرف فى تحديد الشخصية السياسية ... وهكذا تتنوع الشخصيات حسب تعدد المجتمع والبيئة .

ولا تكون لرجل الدين شخصية إلا إذا ابتعد عن إخضاع الدين فى فهمه وشرحه لميل خاص ، أو لعهد خاص ، أو لمجتمع بشرى خاص ، وكان مع ذلك مثلا عمليا لما ينصح به الناس باسم الدين ورسالة السماء .

ولا تكون للعالم الشخصية العلمية إلا إذا أبعد الهوى ، والحزبية السياسية ، والمذهبية الطائفية فى التفتيش عن الحقيقة ، وفى التعبير عنها أيضاً ، وكان سلوكه الشخصى مع ذلك عنوانا لما وصل إليه باسم البحث عن الحقيقة ، من حيث هى

---

(١) القلم : ٤

حقيقه ، وذلك هو السلوك البعيد عن الهوى والغرض ، وهو نفسه السلوك الفاضل .

ولا تكون لرجل السياسة الشخصية السياسية إلا إذا حكم مصلحة الوطن فيما يسوس به الناس داخل المجتمع أو خارج هذا المجتمع ، وكان تصرفه العملى مع ذلك نموذجاً للمصلحة الوطنية وحدها .

وعلى هذا النحو تحدد الشخصيات المختلفة فى الجماعة الإنسانية . وعلى هذا النحو يفرق بين بعضها وبعض . ولكن مع ذلك يوجد قدر مشترك هو عنصر ضرورى فى تكوين الشخصية الإنسانية على العموم ، وهو عنصر القدوة الحسنة ، والمثل الطيب لصاحب الشخصية .

والرسول ﷺ لم تتميز شخصيته لأنه صاحب رسالة إلهية فحسب كلف من قبل الله سبحانه وتعالى بتبليغها للناس كافة ، بل لأنه مع ذلك كان قدوة حسنة ومثلا أعلى للاستقامة الإنسانية ، والمبادىء الخالدة التى تضمنتها رسالته المنزلة ، وهى تلك المبادىء التى تصور الرشد الإنسانى ، وتهدف إلى نضوج البشر ، والخروج بهم من الطفولة الإنسانية إلى مستوى إنسانى أرقى ، ومجتمع بشرى أفضل .

الرسول هو المثل الاعلى :

الرسول عليه الصلاة والسلام كان مثلا أعلى للاعتدال فى الوجدان ومظاهره ، مثلا أعلى لضبط النفس فى حال ما يسرها أو يحزنها : كان إذا فرح ابتسم ، وإذا ضحك لم يقهقه . يروى عن جابر بن سمرة : « ... وكان لا يضحك إلا تبسماً » وإذا حزن طوى حزنه فى نفسه ، وإن اشتد به الحزن دمعت عيناه ، دون أن تخرج به شدة الحزن إلى المظاهر الأخرى غير الكريمة . ويروى أنس رضى الله عنه قال: « دخلنا مع النبى ﷺ على ولده إبراهيم عليه السلام وهو يجود بنفسه — أى يحتضر — فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان . فقال له عبد الرحمن بن عوف:

وأنت يا رسول الله ؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة » . ثم قال صلى الله عليه وسلم : **ان العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون** » .

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان مقتصداً فى حزنه إذا عرضت له أحداث الحزن واشتدت به ، ومعتدلا فى التعبير عن سروره إن وجدت له مقتضيات السرور . وبهذا أو ذاك كان يمثل الصورة الرفيعة لعواطف الإنسان وانفعالاته .

فطول أمد الحزن ، أو الاستمرار فيه كفيل بقطع الإنسان عن الحياة العامة، وسبب فى النظرة إلى الناس والحياة نظرة المتشائم ، أو اليائس . ولهذا يروى عنه — فى رواية أنس رضى الله عنه — : « لا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد . وإما مسيئاً فلعله يستعتب [يرجع إلى الله بالتوبة] » .

وكذا المبالغة فى التعبير عن الفرح والسرور بالقهقهة أو ما يشبهها من حركات الجسم والصوت ، سبيل إلى أخذ الحياة بغير مأخذ جدى وعنوان على عدم سيطرة الإنسان بعقله على اهتزاز وجدانه .

الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان مثلا أعلى للاعتدال فى الوجدان ومظاهره — كان مثلا أعلى أيضاً فى العمل حتى فى العبادة نفسها . يروى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه يقول : **اما والله ، انى لأخشاكم لله ، واتقاكم لله ، لكنى اصوم وافطر ، واصلى وارقد ، واتزوج النساء ، فمن يرغب عن سنتى فليس منى** ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » ..

كان مثلا أعلى فى سلوكه مع أصحابه رضوان الله عليهم ، وفى سلوكه فى أسرته. سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله ؟ قالت : « كان فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة » .

* * *

القدوة الحسنة فى حاجة الى تدريب :

والقدوة الحسنة تحتاج إلى أن يدرب الإنسان نفسه على الفعل الحسن حتى يـكون مثلا للفعل الحسن ذاته . وأقوم سبيل إلى ذلك أن يسلك الطريق الذى خطه الإسلام للعمل الصالح وهو طريق المؤمنين الناجحين ، ويصوره الله فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الذينَ هُم فِى صَلاتِهِم خاشِعُون ، والَّذِينَ هُم عَنِ اللغوِ مُعْرِضُون . والَّذِينَ هُم للزكاةِ فاعِلون . والذِينَ هُم لفُروجِهِم حَافِظُون . إلا عَلى أزْوَاجِهِم أوْ مَا ملَكت أيمانهم فإنهم غَيرُ ملومِين . فمن ابتغَى وَرَاء ذَلكَ فأولئِكَ هُم العادُون . والذين هُم لأمَانَاتِهِم وعهدِهِم رَاعُون . والذين عَلى صلوَاتِهم يُحافِظُون . أُولـئكَ هُم الوَارِثُون . الذين يَرِثُون الفِردَوْس هُم فِيها خالدُون[١] » .

وإن الصوم من أهم العوامل التى تدفع الإنسان إلى أن يـكون ذا قدوة حسنة فى أهله وجماعته ، لأنه امتحان لمدى سيطرة الانسان من نفسه على نفسه وتغلبه على هواه ، وميله إلى الفعل الحسن ، والعمل الصالح . ويقول الرسول ﷺ : **« كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وانا اجزى به »** .

(١) سورة المؤمنون ١ — ١١

الطريق إلى التقدم

هناك فى مجتمعنا الإنسانى المعاصر تقدم علمى ، وتقدم تيكنولوجى يتميز بهما هذا العصر عن عصور البشرية السابقة . وهما أساسان للتقدم الصناعى والتقدم الاقتصادى .

وهناك كذلك تقدم حضارى يتمثل فى بناء المساكن وتعبيد الطرق ، وفى وسائل المواصلات ، وفى الوقاية من الأمراض ، وفى أداء الخدمات العامة فى القرية والمدينة على السواء .

وهذه الأنواع من التقدم تدل من غير شك على التقدم الفكرى الإنسانى وتفوقه فى السيادة من أجل ذلك على الأرض والماء والهواء ، تفوقاً تجلت فيه قدرة الإنسان على البناء والهدم على السواء .

ولكن هل ساد الإنسان بهذا التقدم الخلاق على نفسه فعاش فى سلم معها ومع الآخرين فى مجتمعه الخاص ، أو المجتمع الدولى العام ؟

... تقدم الإنسان فى تفكيره ، وعلمه . وفى تطبيق هذا العلم فى مجالات الحياة المختلفة ، وفى بناء حضارة مادية شامخة .

فهل وجه التفكير والعلم لإسعاد الإنسان وتوفير ظروف الاطمئنان له ؟

وهل قصر تطبيق علمه ، على ماينفع الإنسان ويتيح له فرصة إبعاد عامل الفقر والجوع والمرض ودفعها الملايين من البشر إلى الهلاك ؟

وهل عمل على صيانة هذه الحضارة المادية من التدمير ؟

أم أنه اتجه بكل أنواع تقدمه فى الدرجة الأولى إلى إمكانية التحطيم والتخريب لما بنى بالأمس ويبنيه اليوم ؟

إن ماينفق على معدات الهجوم ووسائل الدفاع فى المجتمعات التى تقدمت فى العلم والصناعة يشير إلى رقم عال فى الانفاق قد يكون توفيره ليس على حساب المواطنين وحدهم فى هذه المجتمعات بل أيضاً بطريق غير مباشر على حساب المواطنين فى المجتمعات التى لم تتقدم بعد أو أخذت فى سبيل هذا التقدم... أى على حساب البشرية كلها .

وعلى أية حال لابد أن يوصف العمل الخلاق الإنسان فى العلم والتيكنولوجيا والحضارة فى قرننا العشرين، وبالأخص فى النصف الثانى منه : بأنه تقدم إنسانى لا شك فيه .

ومع ذلك أليس إنسان القرن العشرين هذا متخلفاً فى إنسانية السلوك والمعاملة؟

إنه يقاتل أو يخرب فى سبيل استغلال غيره والتمتع بمنافع اقتصادية يحرم منها الآخرين الضعفاء فى مواجهته .

إن صاحب هذا التفوق فى العلم والصناعة يستخدم تفوقه فى هذه المجالات لإرغام غيره على قبول وصايته بصورة أو بأخرى لمصلحة ينتزعها فيسعد نفسه ويشقى غيره . وإن القوة التى يحصلها عن طريق التقدم العلمى والصناعى يصرفها فى إذلال الغير أكثر مما يصرفها فى الحفاظ على اعتبار الإنسان وكرامته كإنسان يتميز عن الحيوان .

ما الفارق بين الإنسان المتفوق فى العلم والصناعة والتفكير فى المجتمع المعاصر عندما يذل غيره لإسعاد نفسه أو لتتخم معدته ويشبع شهوة فرجه .وبين الحيوان الأقوى بعضلاته عندما يبعد الأضعف منه عن المشاركة فى المرعى أو فى الرأى ويناطحه ، وربما يقتله عندما تقل كمية الغذاء أو الماء ؟ .

إن الصراع الدائر فى عالمنا المعاصر اليوم هو صراع بين قوى حقاً هى متفوقة فى العلم والصناعة والتفكير ، ولكنها على وجه القطع متخلفة فى إنسانية السلوك

والمعاملة . لأن صراعها صراع اقتصادى فى أساسه ومغلف بايديولوجية أو بأخرى .

أيضاً إذا كان هو صراعاً بينها وبين بعضها فهو كذلك صراع بينها مجتمعة من جهة وبين الضعفاء الذين لم يتفوقوا مثلهم فى العلم والصناعة والتفكير ، أو ابتدأوا فى سبيل هذا التفوق ولكنهم أقل منهم وأبعد عن الدرجة التى تمكنهم من المنافسة .

وصراعهم إذن يشبه صراع الحيوان من أجل المعدة أو الفرج ... صراع الحيوان الذى لايعرف إلى القسمة والمشاركة السلمية سبيلا ، فضلا عن أن يعرف التعاون مع غيره على دفع الجوع والعطش .

وتفكير هؤلاء المتفوقين وأصحاب القوة عن طريق العلم والصناعة إن أوصلهم إلى الإبداع فى مجال الصناعة والحضارة وبالتالى إلى محاولة السيطرة الاقتصادية .. فإن تفوق هذا التفكير لديهم يتجلى أيضاً واضحاً فى إبداع الشعارات التى تخدع الضعيف وهى تخفى وراءها محاولة الاستغلال والانفراد وعدم المشاركة للآخرين الذين هم موضع الاستغلال .

تفكير القرن العشرين تفكير غريب : يكشف ويمعن فى الكشف عن الطبيعة والكون ، وفى الوقت نفسه يخدع الإنسان ويمعن فى خداعه . وعلم القرن العشرين علم غريب يرفع فى الوقت الذى يذل فيه ، ويبنى فى الوقت الذى يهدم فيه . وحضارة القرن العشرين حضارة غريبة : تشمخ بمزاياها وبضخامتها ولكن ينقصها روح الإنسان التى تشع الصفاء والاطمئنان والأمن فى الغد القريب والبعيد .

وما هو كائن اليوم بين المجتمعات بعضها مع بعض ... كائن أيضاً بين أفراد المجتمع الواحد . إذ قلما تجد السلام فى النفوس على انفراد أو فى علاقاتها معاً . وبصورة غير واضحة يدور الصراع بين أفراد المجتمع الواحد كما يدور بين المجتمعات .

وعلى شاكلته: المتفوق أو القوى اسبب من الأسباب يطارد الضعيف عنه ومن أجل منفعة اقتصادية . وهكذا نجد تفوق الإنسان المعاصر فى المجتمع الواحد: فى العلم وتطبيقه يصاحبه تخلف فى إنسانية السلوك والمعاملة ، على نحو ماهو بين المجتمعات المتفوقة .. والأمل فى التفوق .

أليس التمييز العنصرى فى مجتمع والصراع الطبقى فى مجتمع آخر آية على أن طابع الحياة المعاصرة كما يحمل التفوق فى التفكير ... كما يحمل التخلف فى إنسانية السلوك والمعاملة ؟

وإذا كان الملونون اليوم فى التمييز العنصرى موضوع استذلال المتفوقين عليهم من البيض ، وإذا كان العمال اليدويون موضوع استغلال لمن هم أشد بأساً من رجال الصناعة ... فليس هناك ضمان فى الغد إذا أصبح هؤلاء العمال وأولئكم الملونون ذوى قوة وسيادة : من أن يكونوا كذلك أصحاب تخلف فى إنسانية السلوك مع الآخرين؟.

وإذن السبب الرئيسى فى هذا الطابع المزدوج للحياة المعاصرة — وهو طابع التقدم الفكرى والعلمى والصناعى .. مع التخلف فى إنسانية السلوك — ليس هو ذات التقدم فى هذه الجوانب بل هو فراغ هذه الحياة من «روح الإنسانية» وافتقارها إلى قوة أخرى تدفع هذه الحياة كذلك إلى الأمام بحيث يصبح الفرد فى سلوكه مع نفسه وغيره من المجتمع المتقدم فى علاقته بمجتمع آخر بعيداً عن مشاركة الحيوان فى الاعتداء على الآخرين بصورة أو بأخرى من أجل إرضاء المادة والتلذذ بحرمان الآخرين ، وبحيث يصبح التقدم العلمى والتيكنولوجى خالصاً لخير البشرية وأمنها.

إن دعوة « الحرية » أو دعوة « السلام » أو ماشاكل ذلك مما يرمز لإيديولوجية معينة فى صراع المجتمعات المعاصرة وتنافس ، عن طريق التقدم الفكرى على استغلال الضعيف بدلا من الجدية فى معاونته فى السير فى طريق

التطور والبناء . . هى من الشعارات التى تجذب ، ولكنها لاتحول - من جانب من يرددها فى هذا المجتمع أو ذاك — دون ممارسة التخلف فى إنسانية السلوك .

تقدم فكرى وعلمى وصناعى : فى حاجة ماسة إلى تقدم « روحى » ... فى حاجة إلى تقدم إنسانى فى السلوك والمعاملة ، حتى يمكن الإنسان أن يحيا حياة الإنسان .

والعدل البشرى فى المجتمع الإنسانى كله لايمكن أن يتحقق إلا إذا ساوق التقدم الروحى تقدم الفكر والعلم والصناعة . .

لايمكن أن يخفف من حدة الجوع والمرض فى العالم إلا إذا اتجه الفكر والعلم والصناعة إلى توفير الغذاء للإنسان وتوفير الوقاية الكافية من الأوبئة والأمراض المنتشرة . . وابتعد الفكر والصناعة بالقدرة : عن تدمير الحضارة الإنسانية وإبادة الجنس البشرى .

ويوم يؤمن هذا الإنسان الخلاق بالله — كما آمن بالفكر . . يوم يوفر تفكيره لمحض الخير .

إن الإنسان المعاصر آمن بشىء وكفر بشىء آخر فى خصائصه هو كإنسان : آمن بفكره ، وكفر بوجدانه . ولذا لم يساير وجدانه تفكيره . ويوم نحى عنه الروحية أمات وجدانه ، وأصبح ينظر إلى الأفراد الآخرين كأجزاء فى مركب عضوى يتحرك بالدفع وليس بالإرادة أو بالأحاسيس والمشاعر الإنسانية المتبادلة.

« والروحية » التى نشير إليها هى مجموعة القيم الإنسانية الرفيعة التى يناجى بها الدين وجدان الإنسان ويدعوه إلى السمو فوق مستوى تبادل المنفعة المادية ومستوى التنازلات فى المعاملة الإنسانية . هى الدعوة إلى الإنفاق والبذل فى الرخاء والشدة على السواء ، هى الدعوة إلى الإعطاء أكثر من الأخذ ، وإلى التسامح والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ عند الإثارة ... هى الدعوة إلى الانسانية المهذبة ، وهى الإحسان فى المعاملة والسلوك .

« وَسَارِعوا إلى مَغفِرةٍ مِنْ رَبِّكم ، وَجنَّة عَرضها السَّمَوَات والأَرْض أُعدت لِلمتقين .
« الذِين يُنْفِقون فِي السرَّاء والضرَّاء ،
« والـكاظِمِين الغَيْظ ،
« والعَافِين عَنِ النَّاس ،
« والله يحبُّ المحسنين .
« والذِين إذَا فعلُوا فَاحشَة أوْ ظَلموا أنفسهم ذَكرُوا الله فَاستغفروا لِذُنوبهم ومَن يَغفر الذُنوبَ إلا الله ، ولم يصروا عَلى مَا فَعلُوا وَهُم يَعلمون »(١) .

على أن هذه الروحية ليست دعوة إلى السلبية فى الحياة ، وليست كذلك دعوة إلى الاستسلام للاعتداء ، ولا هى دعوة إلى عدم الأخذ بأسباب القوة المادية التى تقوم على الكشف والبحث والتجربة والتصنيع ، والتى من شأنها أن تعين على دفع الفقر والمرض والجهل .. كما ترد اعتداء المعتدى .

يقول القرآن الكريم : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ،
وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ليقوم الناس بالقسط ،
« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ،
« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »(٢) .

فهذه الآية تقرن طلب الهداية وإقامة العدل بين الناس عن طريق كتاب الله بالكشف عن الحديد واستخدامه كمصدر للمنافع المفيدة للبشر وقت سلامتهم وأمنهم ، كما هو مصدر القوة الرادعة عند دفع الاعتداء ورد الظلم .

وفى التعبير بـ «أنزلنا» فى هذه الآية : مرة فى جانب « الكتاب» ومرة أخرى فى جانب « الحديد » يشير إلى أن ذات القيمة التى يضمها القرآن على الحديد هى

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ — ١٣٥ .
(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

obeikandi.com

نفس القيمة التي يضعها على الكتاب : فهما ضروريان للأمة وللبشرية : في إنسانية سلوكها ، وفي قوتها المادية على السواء .

ثم ماجاء في ختام هذه الآية من قوله تعالى : « إن الله قوى عزيز » . . . يؤكد أهمية القوة والعزة والمنفعة في حياة الأمة . فما هو من صفات الله : مطلوب من الإنسان أن يسعى لتحقيقه في حياته فرداً وجماعة . فإذا وصف الله نفسه بالرحمة وبالشدة : «اعلموا أن الله شديد العقاب وإن الله غفور رحيم»، فالمؤمنون على سبيل الحقيقة هم كذلك يجب أن يكونوا أشداء ورحماء في الوقت نفسه «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

وليست الروحية كذلك عدم استمتاع بالحياة المادية . فالقرآن الكريم ينكر على من حرم متع هذه الحياة : تحريمه هذا بقوله : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » . بل لم يكتف بالإنكار وطلب مع ذلك من الناس أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد : « يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .. » .

إن مالاتتفق معه « الروحية » حقاً هو استخدام القوة المادية للطغيان والاعتداء وإساءة استعمال متع هذه الحياة المادية في الاثم وإثارة البغضاء بين الناس واستضعاف الضعفاء وإذلال أصحاب الحاجة . « قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق . .»

دعوة الروحية إذن هي دعوة إلى تقدم الانسان : في إنسانية السلوك التي تجعل من الناس محسنين ومهذبين في المعاملة ، ومتوادين ومتعاونين في المجتمع . ثم إلى التقدم في التفكير الذي يستتبع بدوره التقدم العلمي والصناعي والحضاري .

دعوة « الروحية » ليست دعوة إذن إلى «التخلف» ولا هي رجعية . بل هي الطريق إلى التقدم المصحوب بالأمن والسلام . والوقوف عند حد التقدم العلمي والصناعي وحده دون تقدم في إنسانية الإنسان ومعاملته — هو في واقع الأمر : طريق إلى الرجوع إلى الوراء .. الرجوع إلى حيوانية الحيوان في الاعتداء من أجل نداء المعدة والفرج ، ولكن بصورة مدمرة ومخربة .